

الطبعة الثانية

محمد إبراهيم مبروك

كُنْ قَوِيًّا بِالْإِيمَانِ

عقيدة الإسلام
ومنهج في بناء الشخصية القوية



كن قوياً بالإيمان



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة في استنهاض وتكويد الانتماء والهوى القومي العربي، في إطار المشروع الحضاري العربي المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز إلى تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة في ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كتّيبها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

رئيس المركز

علي عبد الحميد

منبر المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان العكيت مكات - القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

محمد إبراهيم مبروك

كن قويًا بالإيمان



الكتاب: كن قوياً بالإيمان

الكاتب: محمد إبراهيم مبروك

الناشر: مركز الحضارة العربية

الطبعة الثانية: القاهرة ٢٠٠٩

الغلاف

تصميم وجرافيك: ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكتروني:

وحدة الحاسوب بالمركز

تنفيذ: إيمان محمد

رقم الإيداع: ٢٠٠٩ / ١٥٧٢٣

إهداء

إلى الرسول ﷺ

ثم

برغم تغير الظروف والمواقف

إلى أول إنسان قرأ لي في الوجود

ثم

إلى.....

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

بعد كتاب "كن قويًا بالإيمان" نعمة نشاز جدًا في مقابل قعقة الأصوات القائمة التي تخاطب الإنسان على أنه كائن ينتمي إلى أحد الكيانات أو التيارات الجماعية المسيية أو غير المسيية.

فكتاب "كن قويًا بالإيمان" كتاب يتوجه إلى الإنسان العادي بعيدًا عن كل هذه الأشكال والتيارات.

إنه يتوجه للإنسان الفرد العادي جدًا المسلم بل وغير المسلم أيضًا ليقول له: كيف يصنع الإيمان بالعقيدة الإسلامية الأسس التي تستطيع أن تعيش عليها في مواجهة طوفان المادية النفعية الذي يجتاح العالم اليوم ويجرف أمامه كل شيء. وما هو المنهج الذي تستمده منها لبناء الشخصية القوية التي تطلبها القدرة على النجاة من هذا الطوفان. ويقول له أيضًا كيف من الممكن أن تصنع ذلك استقلالاً في ظل فقدان القدرة على اختيار كيان جماعي ما، أو فقدان القدرة على تحمل أعباء الدخول فيه، أو فقدان وجود هذا الكيان الجماعي المنشود أصلاً.

وحتى على فرض وجوده والدخول فيه فلن يضره امتلاك الفرد هذه القوة الإيمانية الاستقلالية، بل من الأكيد أنها ستفيده.

وكتاب "كن قويًا بالإيمان" هو أكثر كتبي التي لاقت نجاحًا لدى الجمهور على الأقل وهو أقرب كتبي إلى نفسي وهو ليس مجرد كتابًا تقليديًا من الناحية المنهجية في الكتابة فلقد كان حين كتابته يحمل رسالة إلى شخص ما على وجه التحديد بهدف إنقاذه من الهوة البشعة التي يترلق إليها (ومن ثم فقد يكون هذا الكتاب هو أطول رسالة في التاريخ) وهو يحمل نفس الرسالة إلى كل إنسان على ظهر الأرض من الممكن أن يتعرض لنفس ما تعرض له هذا الشخص وهذا ما يفسر لماذا حملت عبارات هذا الكتاب لغة خاصة جدًا... لغة تجمع بين العقل والشعور وتخاطب الإنسان كافة وليس جانبًا واحدًا منه ولم أكتب أنا نفسي مثل هذه اللغة في غير هذا الكتاب.

وحين أقول إن هذا الكتاب موجه لغير المسلم أيضًا فإنني أقصد بذلك أنني تعمدت عند

كتابته أن أعرض العقيدة الإسلامية ومنهجها في صناعة الإنسان القوي بالطريقة التي تكشف للإنسان الباحث عن الحقيقة في كل مكان في هذا الوجود أيًا كان اتماؤه إنما الطريق الوحيد لتحقيق الغايات الكينونية في داخله وبلوغ النجاة من طوفان المادية النفعية المعاصرة التي تحطم آدميته.

وما فعلته في هذه الطبعة الجديدة هو أنني قد أضفت قسمًا جديدًا يتحدث عن العقيدة الإسلامية من الناحية العلمية بشكل شامل وتفصيلي ولكنه موجز ومركز لدرجة كبيرة. والحقيقة أن هذا القسم كان مدرجًا بالفعل في النسخة المعدة للطبعة الأولى (وإن كان مختصرًا عما هو الآن) ولكنه فقد في ظل الظروف المأساوية التي تمت فيها تلك الطبعة السابقة.

وفي الوقت نفسه فقد تم حذف القسم الخاص بعلم النفس في الطبعة السابقة بعد أن اتسعت فصوله ومواده ليتم إعداده للإصدار في كتاب مستقل قريبًا بإذن الله.

وظل القسم الأساسي من الكتاب المتعلق بالمنهج المستمد من العقيدة الإسلامية في بناء الشخصية القوية تمامًا كما هو، لم أكد أستطيع أن أضيف إليه جملة واحدة بل إن اللغة التي أكتب بها هذه المقدمة لى في ذاتها دليلاً على أنني لا أستطيع ذلك ومع هذا فهناك عبارة تكررت إضافتها إلى عدد من المواضع أشير فيها إلى أنه في ظل الظروف الكارثية التي تعيشها بعض المجتمعات الإسلامية فإن واقعية الموقف تفرض علينا عدم المبالغة في الطموح إلى الدرجة التي تدفع الإنسان المسلم إلى السعى لمواجهة الفساد العام فإنه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وإنما قد يكون أقصى ما تفرضه هذه الظروف أن يسعى الإنسان المسلم إلى النجاة بنفسه ومن هم مسئول عنهم من هذا الطوفان لا أكثر فيخلق على نفسه بابه ويكسي على خطيئته كما أوصى الرسول ﷺ المسلمين عند التعرض لظلمات الفتن.

وهذا الكلام لا أقصد تعميمه على كل المجتمعات الإسلامية فهناك الكثير منها تظل رسالة الكتاب إلى المتمين إليها هي كما هي أي كما جاءت في الكتاب في طبعته الأولى ولكنني كما أشرت سابقاً فإن إضافة هذه العبارة يصبح أمراً ضرورياً للغاية في ظل تلك المجتمعات الكارثية التي يغدو أقصى أمل للإنسان فيها هو أن ينجو بنفسه.

ها أنا أتحدث بهدوء شديد عن عاصفة.

محمد إبراهيم مبروك

الجزيرة

أغسطس: ٢٠٠٩

مقدمة الطبعة الأولى

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥).

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء: ٩).

إن هذه الآيات تضعك بكل حسم أمام هذه الحقيقة أن الإيمان يرتبط وجودًا وعضدًا بحقيقة تسليم الإنسان أو عدم تسليمه بأن ما يحدده التشريع المُستمدُّ من الله في أي أمر من الأمور هو الحقيقة الوحيدة التي يجب التسليم بها، وأن ما دون ذلك من الآراء أو المعتقدات أو الفلسفات أو الشرائع أو العادات أو التقاليد ليس سوى باطل يجب الكفر به، بل إن الاعتقاد بصحة أي شيء من ذلك هو نفي لإيمان الإنسان.

إن ما يقوله الله ورسوله هو الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال.

وما يريد الله ورسوله هو المعيار الوحيد للحكم على الأشياء، ولا قيد للإنسان في هذا الوجود يستوجب قبوله إلا قيدًا وضعه الله ولا حرام في هذا الوجود على الإنسان أن يقف عنده إلا حرامًا حرّمه الله.

إنني دائمًا أتساءل:

إذا كان الله قد أحل شيئًا ما في هذا الوجود فمن ذا الذي يحق له تحريمه؟!...

كيف من الممكن أن تقول مثلًا:

إنه من الخطأ والعيب أن أفعل هذا لأن العرف والتقاليد يمنعانه بالرغم من أن الله قد

أباحه، أى حُكْمٍ هذا للعرف أو للتقاليد من الممكن أن يُقدِّمَ على حُكْمِ الله؟.. وكيف من الممكن أن تعتقد بصحة تقديم حُكْمِ العرف والتقاليد على حُكْمِ الله، وتعتقد أيضاً أنك تظل مع ذلك مسلماً؟!.....

كيف من الممكن أن تقول مثلاً:

إن هذه الأفكار لم تعد صالحة للواقع الذى نعيشه، والذى صارت فيه المصلحة أو المنفعة العملية هى المعيار الوحيد للحكم على الأشياء.. كيف من الممكن أن تعتقد بصحة تقديم هذا المعيار على المعاني المُستَمَدَّة من القيم الإسلامية وتعتقد أيضاً أنك تظل مع ذلك مسلماً؟!..

كيف من الممكن أن تقول:

لقد أقامت إسرائيل ترسانات من القوة العسكرية أما أمريكا التى باتت تغزونا بنفسها ولا تكتفى بمساندة إسرائيل، فقد ركع العالم أمامها وأمست هى القوة الوحيدة التى تحكم العالم، فأنى لنا بمواجهة هذا؟!..

هل من الممكن أن تقدِّمَ هذا المنطق على قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم: ٤٧) بدلاً من أن تأخذ بسنن الله فى الأرض وتُعدِّ لهم ما استطعت من القوة وتعتقد مع ذلك أنك تظل مسلماً؟

كيف من الممكن أن تقول:

إن الواقع يفرض نفسه على كل الأشياء، وإن الحقائق والمفاهيم قد اختلطت حتى فسد الناس القدرة على التمييز بينها، بل إن الناس تحت ضغط الظروف الطاحنة لم يعد يهمهم فى شىء حق أو باطل، وبات غاية ما يفكرون فيه هو امتلاكهم القدرة على أن يعيشوا أياً كان نوع هذه المعيشة، وصارت الحياة كلها عبث فى عبث، كيف من الممكن أن تقول ذلك والله يقول:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (المؤمنون: ١١٥)

وتعتقد أنك مع ذلك تظل مسلماً؟!.....

أمر لا فصال فيه، فإما أنك تؤمن بالإسلام أو لا تؤمن، فإن كنت تؤمن بالإسلام فليس هناك أى مصدر آخر تتلقى منه تصوراتك وقيمك وقواعد سلوكك، وإما أنك لا تؤمن به

فاختر المصدر الذي تتلقى منه هذه الأشياء من حيث تشاء فليس بيننا وبينك سبيل.

إن هذا الفصام المختلق بين عقيدة المسلم وتصورات وسلوكه، هو الذي جعل من المسلمين كائنات هشة لا حول لها ولا قوة، تتداعى عليها الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، وبدلاً من الإعداد والتحدى والمواجهة ركنوا إلى الاستسلام لكل ما يصيبهم من الاعتداء كشيء تمضى إلى الذبح في هدوءٍ عجيب.

إن الإسلام لا يتراجع أمام الواقع ولا يحجم عن اقتحامه والتفاعل معه ومن ثم استيعابه وإصلاحه وتقويمه في صبرٍ وأناة - بقيمه وحكمته ومنهاجه القويم - لكي يستنهضه ويرفعه ويسمو به إلى مثله العليا وغاياته المنشودة، هذه هي الواقعية التي نفهمها وليست الواقعية التي لا يفهمها سوى الضعفاء والاهزاميين والتي لا تعنى سوى الاستسلام المخزي للأمر الواقع.

إنه المنهج الإسلامي الذي إذا أردنا أن نعبر عنه بصيغة فلسفية معاصرة نقول: "إنه المثالية الواقعية: المثالية التي تسمو بالإنسان إلى رضا الله ورضوانه، والواقعية التي تفرض عليه التعامل مع الواقع بموضوعية كاملة"^(١).

وهذا الكتاب الذي تقدمه هنا يتناول أثر العقيدة الإسلامية على تصورات المسلم وقيمه وسلوكه في الواقع المعاش، والعمل على وضع منهج إسلامي لبناء الشخصية القوية من الأسس الإيمانية لهذه العقيدة.

ولذلك فهذا الكتاب كتاب عقائدي في الدرجة الأولى ولكنه لا يتناول العقائد الإسلامية من حيث كونها قواعد علمية يُرادُ بهذه العقائد دفع ما يتعلق بها من دواخل جاهلية فقط كما تفعل أغلب كتب العقائد، ولكن من حيث فعاليتها في حياة المسلمين.

لكن علماء النفس الغربيين يقولون لنا: عن أي شيء نتحدثون؟ وأي بناء هذا الذي تريدون أن تقيموه؟ فالإنسان مجرد تركيب مادي عنصري، وكل ما يتعلق بالأفكار والسلوك هو مجرد ناتج كيماوي عن عمليات التفاعل بين الجزيئات الداخلة في تركيب الإنسان، فليس هناك شيء يسمى العقل أو حرية الإرادة بله أن يكون هناك شيئاً يسمى الروح.

كما أنه ليس هناك تعريف دقيق لما يسمى بشخصية الإنسان، ولا توجد تلك التفرقة المشاعة بين الشخصية القوية والشخصية الضعيفة، وإنما المعيار الوحيد للشخصية السوية أو

(١) الإسلام النقي للمؤلف ص ٥٣.

غير السوية يدور حول ما يتعلق بمدى تلاؤمها مع الوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه، ولذلك فقد تعين علينا لكي نضع منهجًا إيمانيًا منطقيًا لبناء الشخصية القوية أن نحدد قبل ذلك ما هي رؤيتنا الإسلامية لكل هذه الأمور؟

* ما هو التركيب العضوي للإنسان الذي يقوم بالوظائف السلوكية؟

* أين العقل وأين الروح وما هي حقيقة النفس الإنسانية؟

* ما هي المحددات الأساسية في تركيب النفس الإنسانية؟

* ما هي الكيفية التي تتحرك من خلالها سلوكيات الإنسان؟

* ما هو دور حرية الإرادة في كل ذلك؟

* ما هي الشخصية القوية؟ وما هي الشخصية الضعيفة؟

وتحديدنا لكل هذه الأمور إنما ينطلق من وعينا الإيماني بها، ذلك الوعي الذي يشتمل على الواقعية والعقلانية في التفكير.

ولقد استلزم تحديدنا لهذه الأمور أن نتعرض بالنقاش لمنهج علم النفس الغربي وللبعض نظرياته وعلى رأسها نظريات فرويد في التحليل النفسي القائمة على أساس الجنس وذلك في حدود القدر الذي يسمح به موضوع الكتاب، وإن كانت هذه النظريات تستحق أن نفرد لها كتابًا خاصًا وذلك لما يُروَّجُ له العلمانيون من مصداقية زائفة لها تخدع الكثيرين.

* قد يقول بعض القراء الذين اطلعوا على كتيبي السابقة: ها هو قد يجنح في مقدمته إلى حيث يميل فكره إلى مناقشة الأفكار والفلسفات الغربية، ولكن أطمئنهم، لن أجنح إلى ذلك في هذه المقدمة، والموضوع الذي أقدمه في هذا الكتاب من أهم المحاور التي يدور عليها فكري، كما أنه من أقربها إلى نفسي، ويكفي أن أقول: إنني قد بدأت الكتابة في هذا الموضوع منذ أكثر من اثني عشر سنة ثم على فترات مختلفة بعد ذلك ثم تكشف الأمر لدى في العامين الأخيرين بوجه خاص لأكمل ما قد بدأت منذ تلك المدة الطويلة.

وما أنا قد بلغ بي الجهد مبلغه ولم أقل كل الذي أريد أن أقول، ولكن الأمر السذي لا أستطيع أن أذهل عنه هو أن أقول لك:

أيها الإنسان.. اخرج من ذلك الوهم الكبير.

وَهُمُ الْإِعْتِقَادُ بِأَنَّ الشَّخْصَ الْعَاقِلَ هُوَ الشَّخْصَ الَّذِي يَمْشِي عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي يُحَدِّدُهُ لِنَفْسِهِ
مَجْتَمَعُهُ حَتَّى وَلَوْ كَانَتْ الْقِيَمُ الَّتِي تَسُودُ ذَلِكَ الْمَجْتَمَعَ هِيَ قِيَمُ الْجَهْلِ وَالْفُسَادِ فَتَسْتَلِمُ بِذَلِكَ
لِتِلْكَ الْقِيُودِ الَّتِي يَقُودُكُ بِهَا هَذَا الْمَجْتَمَعُ كَشَاةَ تَمْضَى إِلَى مَصِيرِهَا الْمَحْتَمِ، أَيْ: إِلَى الذَّبْحِ.

لا.....

لَا بَدَّ أَنْ تَمزُقَ تِلْكَ الْقِيُودَ الَّتِي يَنْسُجُونَ مِنْهَا كَفَنَكَ وَتَحْطُمَ تَابُوتَ وَهْمِكَ، لَا بَدَّ أَنْ
تَخْرُجَ مِنْ تَابُوتِ الْخُرَافَةِ الَّذِي أَرَادُوا أَنْ يَسْجُنُوكَ فِيهِ، لَتَمضُ فِي الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي
حَدَّدَهُ اللَّهُ لِلْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُنْشُودِ وَلَيْسَ طَرِيقَ الضَّلَالِ الَّذِي حَدَّدْتَهُ أَهْوَاءُ الْبَشَرِ.

محمد مبروك

الوراق - ديسمبر ١٩٩٢

القسم الأول
عقيدة الإسلام

عقيدة الإسلام

ما هي عقيدة الإسلام؟

هل هي عقيدة تحمل الكثير من الصعوبات والتعقيدات؟

هل هي عقيدة قابلة للتجديد أو التطوير؟

في الحقيقة فإن عقيدة الإسلام عقيدة سهلة وبسيطة وواضحة وضحًا مضيئًا وليس بها أية تعقيدات أو صعوبات لأن معرفة الله وعبوديته لا يمكن أن تشتمل على أية تعقيدات أو صعوبات.

كما أنها عقيدة لا يمكن أن تكون إلا ثابتة ثباتًا أبديًا لأنها العقيدة التي تعبر عن الحقيقة ذاتها.

وهي عقيدة تلخص في جملتين فقط تمثلان في الشهادة (لا إله إلا الله. محمد رسول الله).

لا إله إلا الله

نفي وجود أي إله سوى الله الواحد الأحد الفرد الصمد.

هو وحده الخالق الباري رب الوجود، وهو وحده الذي لا يعبد سواه.

هو وحده الخالق الباري لا شريك له ولا والد ولا مولود.

هو وحده الذي لا يعبد سواه لا شريك له ولا شفيع ولا وسيط.

محمد رسول الله

أي نؤمن بأن محمد هو الرسول الذي أرسله لنا الله لنعبده من خلال رسالة الإسلام التي

أرسلها لنا، أي أن تكون عبوديتنا لله من خلال رسالة محمد ﷺ.

فنؤمن بالعقيدة التي بينها لنا محمد ﷺ ونتبع الشرائع التي جاءنا بها محمد ﷺ.

ولقد بين لنا هذا الرسول ﷺ أن الإيمان هو أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله

واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

أركان الإيمان أولاً: الإيمان بالله

توحيد الربوبية:

نؤمن بالله الواحد الأحد ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ ﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ
كُفُوًا أَحَدٌ ﴿

الخالق الباري ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾.

هو الخالق الباري الذي خلقنا وخلق الكون جميعاً وهو رب الناس أجمعين وهو مالك
الأمر في هذا العالم كله لا شريك له في ملكه ولا معقب له في حكمه.

ويتناقض مع هذا الإيمان:

- الاعتقاد بأن الله هو مجرد المهندس أو البناء الأعظم لهذا الكون وليس الخالق له من العدم
والراعي له.

- الاعتقاد بأن الله هو النظام الساري في هذا الكون.

- الاعتقاد بأن الله هو الطبيعة.

- الاعتقاد بحلول الله في مخلوقاته أو اتحاده معهم أو ما يسمى بمذهب وحدة الوجود.

توحيد الأسماء والصفات:

ونؤمن بأن الله هو المتصف بكل صفات الجلال والكمال التي جاءت في رسالة محمد
ﷺ من كتاب وسنة. فهو الأول والآخر، الحي القيوم، المحيي المميت، العليم الحكيم،
السميع البصير، الظاهر الباطن، الغفور الرحيم، المنتقم الجبار، القريب المحيب، العلي القدير،
"قدم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء، لا يفنى ولا يبدي، ولا يكون إلا ما يريد، لا تبلغه الأوهام

ولا تدركه الأفهام، ولا يشبه الأنام، حي لا يموت، قيوم لا ينام^(١).

خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش وهو معنا أينما كنا ويسده فرق أيد المؤمنين، ينصر من ينصره، ويعادي من يعاديه، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾ وهو ﴿لَا تُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ و﴿لَا تُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ و﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وهو الدائم الباقي ولا يقى سوى وجهه ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

نؤمن بكل ما سبق وغيره مما ورد في الكتاب والسنة من أسماء وصفات دون تشبيه أو تمثيل أو نفي أو تعطيل أو رد أو تأويل ولكن في إطار قوله تعالى جل شأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

فكما قال الإمام الشافعي "آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله"^(٢).

وكما قال الإمام مالك "الإستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة"

وكل ما خطر ببالك فالله غير ذلك فهو الواحد الأحد الخالق المصور المتزه المتعالي عن عباده وعن أن يشبه شيء من صفاته شيئاً من صفات خلقه.

عجزت فلاسفة الوجود بعقلها المحدود عن إدراك ذات وصفات رب الوجود وليس لها سوى الاهتداء والتسليم بما جاء في رسالة نبيه الكريم ﷺ، من أسماء وصفات ربه المعبود.

وكما قال الإمام الطحاوي: "لا تثبت قدم المسلم في الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام فمن رام (ابتغى) على ما حظر علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد وصافي المعرفة وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوساً تائهاً شاكاً، لا مؤمناً مصدقاً، ولا جاحداً مكذباً"^(٣).

وبما يناقض الإيمان بصفات الله الاعتقاد بأن الله يعلم الكيانات ولا يعلم الجزئيات أو الاعتقاد بأن هناك من يعلم الغيب غيره لأن الله هو عالم الغيب وحده وهو القائل لرسوله

(١) العقيدة الطحاوية (متون التوحيد): ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٢) لمعة الاعتقاد (متون التوحيد): ص ١٦٨.

(٣) العقيدة الطحاوية (متون التوحيد): ص ٢٥٧ - ٢٥٨.

ﷺ في كتابه العزيز: "قل لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير".

ولذلك جاء في الحديث الشريف: "من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد" (حديث صحيح رواه أبو داود وصححه الألباني).

وهذا الكلام ينطبق على أحوال كثيرة يعمل الكثيرون على معرفة الغيب من خلالها مثل: ضرب الودع - الكوتشينة - الفنجان - الأبراج، وأشياء أخرى ما أنزل الله بها من سلطان وكل من يعمل على معرفة الغيب من خلال هذه الأشياء ويصدق ذلك يكون بهذا قد كفر بما أنزل على محمد ﷺ كما نص الحديث.

توحيد الألوهية:

ونؤمن بأن الله وحده هو الإله المعبود، لا إله غيره، المتفرد وحده بالعبادة (والتي تعني الجمع بين الحب والطاعة والارتقاء بهما إلى كمالهما) إياه نعبد وإياه نستعين لا نعبد أحدًا سواه ولا نستعين بأحد سواه هو وحده الذي نتوجه إليه دون سواه بجميع الأعمال التعبدية القلبية والشعائرية من صلاة ودعاء وتوكل وخوف ورجاء واستعانة واستغاثة ونذر وتذلل وخضوع.

وكما قال الرسول ﷺ لابن عباس: "يا غلام: إني أعلمك كلمات

إحفظ الله يحفظك

إحفظ الله تجده تجاهك

وإذا استعنت فاستعن بالله

وإذا توكلت فتوكل على الله"

وهو وحده الذي لا نعبد سواه بالخضوع لأحكامه وأوامره وشرائعه مع الحب والتسليم فهو وحده الحاكم الأمر الذي نعود إلى حكمه وأمره في جميع القضايا والأمور التي تشكل حياتنا ونظام معيشتنا وكل ما يتعلق بديننا من سياسة واقتصاد واجتماع وغير ذلك من الأمور.

فتحقيق هذا التوحيد يتلخص في كلمة واحدة هي: لا

لا لأية وسائط بين الإنسان وبين الله سوى تبليغ الرسل للرسالة

- فلا نعبد إلا الله

- ولا ندعو أحدًا سواه

- ولا نستعين إلا به
- ولا نستغيث إلا به
- ولا نطلب مددًا إلا منه
- ولا نذبح ولا نذير إلا له
- ولا نتوكل إلا عليه
- ولا يحكمنا أحد سواه
- ولا نحب ولا نكره إلا في طاعته

فمما يقتضيه توحيد الألوهية ألا يتوجه الإنسان بأي عمل من أعمال العبودية إلا لله ﷻ مثل:

- الاستعانة بغير الله:

لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَعْبُدُ وَإِنَّا لَنَسْتَعِينُ﴾

ولقول الرسول ﷺ: "وإذا استعنت فاستعن بالله".

- التوكل على غير الله:

لقول الرسول ﷺ: "وإذا توكلت فتوكل على الله".

- الاستغاثة والدعاء لغير الله:

لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (الأحقاف: ٥، ٦).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ (يونس: ١٠٧).

- النذر والذبح لغير الله:

لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣).

قال المفسرون: النسك هو الذبح

قال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي: النذر لغير الله إشراك مع الله كالذبح لغيره" (١)

يقول الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي الشافعي: "فمن ركع أو سجد لحي أو لميت أو نذر لغير الله كأن ينذر لقبور الأولياء أو الصالحين أو يذبح لهم، أو للأشجار أو للعيون، أو يطوف بقبر نبي أو ولي كأن يطوف بقبر الرسول ﷺ أو بقبر علي بن أبي طالب، أو بقبر الحسين أو الحسن، أو علي بن موسى الرضا، أو عبد القادر الجيلاني أو البدوي أو الرفاعي أو غيرهم. أو يستغيث بهم في الشدائد، كأن يقول: يا رسول الله أنقذني، يا رسول الله فرج عني هذا الكرب، المدد يا عبد القادر يا جيلاني، المدد يا سيد يا بدوي. أو يطلب من غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله، كأن يطلب عافية من مرض له أو لغيره، أو قدوم غائب، أو يرزقه أو نحو ذلك من الأمور التي ليست في قدرة المخلوق أن يفعلها. فإنه يكون بكل فعل من هذه الأفعال مشركاً بالله العظيم شركاً أكبر، لا يغفر الله له إلا أن يتوب لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٤٨).

أما ما كان في إمكان المخلوق الحي فلا بأس بأن نستعين به مثل أن تطلب منه أن يعينك في قضاء حاجة، أو إنقاذ من غرق أو حريق، أو ما سوى ذلك" (٢).

– التوسل إلى الله يكون بالإيمان بالله وبرسوله وبالأعمال الصالحة وليس بقبور أحد من الصالحين:

يقول الله ﷻ: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾.

ومعنى الوسيلة هنا: "التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة أو بأسمائه وصفاته لا كما يقول المتدعون، أن تجعل الأنبياء والصالحين شفعاء ووسطاء ويقولون أنها من الوسائل المأمور بها ويفسرون الآية بها" (٣).

(١) نقلًا عن الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ – فتح المجد شرح كتاب التوحيد: ص ١٥٩.

(٢) تطهير الجنان والأركان عن درن الشرك والكفران: ص ٣٧ : ٣٩.

(٣) المرجع السابق: ص ٦٧ ، ٦٨.

فالتوسل المشروع قسمان:

القسم الأول: هو التوسل بالإيمان بالله وبرسوله وبالأعمال الصالحة.

القسم الثاني: التوسل بدعائه ﷺ يوم كان حياً (وليس طلب ذلك منه بعد الوفاة) فقد كان يأتيه السائل فيسأل الرسول ﷺ أن يطلب له من الله العافية كما طلب الإعرابي منه أن يستسقي لهم في الحديث الذي أخرجه البخاري. وكما طلبت الجارية السوداء - التي كانت تصرع - أن يعافها الله، فخيرها الرسول ﷺ بين الصبر وبين أن يدعو لها فاختارت الصبر وسألت أن يدعو الله ألا تتكشف عندما يأتيها الصبر فدعا لها بذلك في الحديث الذي أخرجه البخاري أيضاً.

وهذا التوسل بدعائه هو الذي قد انقطع بعد وفاته ﷺ - فلا يجوز لمسلم أن يأتي قبر الرسول، ﷺ، ويسأله حاجة أو غفران ذنب أو كشف ضرر. والدليل على ذلك: أنه في خلافة عمر بن الخطاب، انقطع المطر وأراد عمر أن يستسقي وطلب من العباس بن عبد المطلب أن يدعو لهم بالاستسقاء فقال: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنينا فستقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نينا ثم قال: قم يا عباس فادع الله لنا. رواه البخاري.

والمقصود هنا أن عمر بن الخطاب توسل إلى الله بدعاء العباس عم الرسول الحبي ولم يذهب إلى قبر الرسول ﷺ، فيتوسل به إلى الله. فلو كان التوسل بالرسول بعد موته لما عدلت الصحابة عن الرسول ﷺ، إلى عمه العباس بن عبد المطلب. وهو الأمر الذي علق عليه الحافظ ابن حجر في كتابه فتح الباري (٢ / ٤٩٧) بقوله: "يستفاد من قصة العباس الاستشفاع بأهل الخير والصلاح وأهل بيت النبوة" أي بدعائهم وهم أحياء^(١).

- التبرك بشجرة أو حجر أو نحوهما.

عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع الرسول ﷺ، إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعلقون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر إنما السنن، قلت والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣٨) لتركين سنن من كان

(١) راجع للمرجع السابق: ص ٦٠: ٦٣.

قبلكم" رواه الترمذي وصححه وصححه الألباني أيضا.

والحديث يتحدث أن هؤلاء الحدباء عهد بكفر أي الذين لم يسلموا إلا منذ وقت قريب عندما رأوا شجرة (السدره: شجرة النبق) يعلق بها المشركون أسلحتهم للتبرك (يناط بها: أي يعلق عليها) قالوا اجعل لنا شجرة للتبرك مثلها فين لهم الرسول ﷺ أن ذلك عمل من أعمال الشرك بالله وأنهم يشبهون بذلك سنن وأفعال الذين قبلهم مثل فعل بني إسرائيل.

ويقول الله تعالى عن آلهة مشركي العرب: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَتَمَّ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴾ (النجم: ١٩-٢٣).

فمن المهم أن آلهة المشركين هذه لم تكن عبارة عن أصنام من التماثيل كما يتصور الناس عادة وإنما كانت كالتالي:

اللات: كانت صخرة بيضاء منقوش عليها بيت بالطائف.

والعزى: كانت شجرة عليها بناء وأستار.

أما مناة: فكان حجرا يراق عنده دماء الذبائح.

ومن ثم فإن تكرر مثل هذه الصور وما يقترن بها من أعمال التبرك في بلاد المسلمين هو تكرر لما كان يحدث في الجاهلية من أعمال الشرك بالله ﷻ.

- وما يتناقض مع توحيد الألوهية أيضا التوكل على غير الله:

يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِي قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (الزمر: ٣٨).

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (الطلاق: ٣)

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

يعني: الله كافي من يتوكل عليه وهو وحده الذي يتوكل عليه فلا يتوكل على غيره.
وقوله: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي فهو كافيه وهل يحتاج بعد الله إلى أحد

والكل محتاج إليه؟.

وعن الرسول ﷺ أنه قال: "من تعلق تيمة فقد أشرك" رواه الحاكم ورواه ثقات وصححه الألباني.

وعنه ﷺ أنه قال: "إن الرقى والتائم والتولة شرك" رواه أبو داود وابن حبان وصححه الألباني.

والمقصود بالرقى هنا هي التي يستعان فيها بغير الله وأما إذا لم يذكر فيها إلا أسماء الله وصفاته ولم تكن بألفاظ مجهولة فقد أمر بها الرسول ﷺ.

والتائم هي الأشياء التي تعلق بالأعناق من خرزات وعظام لدفع العين ولا دافع غير الله. والتولة شيء يصنعه النساء لجلب محبة أزواجهن.

والمقصود ليس هذه الأمور فقط على وجه التحديد وإنما استخدام أي شيء آخر من غير الدين لجلب نفع أو دفع أذى أو حفظ من الحسد فلا نافع ولا دافع ولا حافظ غير الله عليه يتوكل المتوكلون.

– الولاء والبراء:

ومما يقتضيه توحيد الألوهية في الإسلام إخلاص المحبة لله فلا يتخذ العبد من دون الله نداً يحبه كحب الله ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ إِندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ (البقرة: ١٦٥).

ويتفرع عن هذه القاعدة مفهوم الولاء والبراء في الإسلام. فالولاء: هو الحب والمحابة.

والولاية: هي النصرة والمحبة والإكرام والاحترام.

والبراء: هو البعد والإخلاص والإعذار^(١).

وتجد الكثير من الآيات تشدد على خطورة هذا المفهوم في الإسلام، والتأكيد على حقيقة الإيمان يقتضي إخلاص الولاية لله والبراءة من أعدائه. مثل قوله تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتًا ﴾ (آل عمران: ٢٨).

(١) محمد سعيد بن سالم القحطاني – الولاء والبراء في الإسلام: ص ٩٠.

وقوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾ (المتحنة: ٤).

وقد عدد العلماء مظاهر شتى لصور موالات الكفار منها:

- التشبه بهم في الملبس والكلام وغيرها.
- إعانتهم بمناصرتهم على المسلمين ومدحهم والذب عنهم.
- الاستعانة بهم والثقة بهم وتوليتهم المناصب التي فيها أسرار المسلمين واتخاذهم بطانة ومستشارين^(١).
- ومنها كذلك:
- الركون إليهم.
- تعظيمهم وإطلاق الألقاب عليهم.
- مداهنتهم ومداراتهم ومجاملتهم على حساب الدين^(٢).

ولكن المشكلة التي ينجم عنها التباسات خطيرة للغاية هي أن الكثير من الكتاب يذكرون مظاهر متعددة لصور الموالات للكفار دون تحديد أي من هذه المظاهر يعد مناقضاً لحقيقة الإيمان وليس مخالفاً فقط له ومن ثم يشيع إطلاق حكم الكفر على كافة هذه المظاهر لدى الكثير من القراء غير المتعمقين في علوم العقيدة، وهذا أمر خطير للغاية. ومن ثم فلنعد لكبار أئمة التفسير لنعلم حقيقة الأحكام التي جاءت بها الآيات الناهية عن موالات الكفار.

- قوله تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾.

(١) الشيخ صالح بن فوزان الفوزان - الولاء والبراء في الإسلام: ص ٧-٩.

(٢) محمد بن سعيد بن سالم القحطاني - الولاء والبراء في الإسلام: ص ٢٣٨-٢٤٥.

- قال الإمام القرطبي: فيه مسألتان:

الأولى: قال ابن عباس: هـى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار فيتخذوهم أولياء.

الثانية: "إلا أن تتقوا منهم تقاة" قال معاذ بن جبل ومجاهد: كانت التقية في جـدة الإسلام قبل قوة المسلمين فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام أن يتقوا من عدوهم.

قال ابن عباس: هو أن يتكلم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان ولا يقتل ولا يأتى مأثماً.

وقال الحسن: التقية جائزة للإنسان إلى يوم القيامة ولا تقية في القتل.. وقيل أن المؤمن إذا كان قائماً بين الكفار فله أن يداريهم باللسان إذا كان خائفاً على نفسه وقلبه مطمئن بالإيمان. والتقية لا تحل مع خوف القتل أو القطع أو الإيذاء العظيم^(١).

- وفي تفسير ابن كثير: هـى تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين ثم توعد على ذلك فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ أي ومن يرتكب ما هـى الله في هذا فقد برئ من الله كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ - إلى أن قال - ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (المتحنة: ١).

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (المائدة: ٥١).

وقال تعالى بعد ذكر موالة المؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (الأنفال: ٧٣).

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً ﴾ أي إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرمه فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته كما روى البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: "إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم". وقال الثوري قال ابن عباس: "ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان.

وكذا قال أبو العالية وأبو الشعثاء والضحاك والربيع بين أنس ويؤيد ما قالوه قول الله

(١) تفسير القرطبي: مج ٢ ج ٤ ص ٥٢ - ٥٣

تعالى: ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾
(النحل: ١٠٦).

وقال البخاري: قال الحسن: التقية إلى يوم القيامة.

- ومن التفسير المعاصرة.. جاء في صفوة التفسير للشيخ الصابوني: "أي لا توالوا أعداء الله وتركوا أوليائه، فمن غير المعقول أن يجمع الإنسان بين محبة الله وبين محبة أعدائه. قال الزمخشري: هـوا أن يوالوا الكافرين لقراية بينهم أو صداقة أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشر بها ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ أي من يوال الكفرة فليس من دين الله في شيء ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً ﴾ أي إلا أن تخافوا منهم مخدوراً أو تخافوا أذاهم وشرهم. فأظهروا موالاتهم باللسان دون القلب، لأنه من نوع مداراة السفهاء كما روى "إنا لبش في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم"^(١).

- وجاء في زبدة التفسير للدكتور محمد سليمان عبد الله الأشقر: ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً ﴾ أي إلا أن تظهروا لهم الموالاتة بألستكم ظاهراً وقلوبكم تكرههم، وذلك إذا كنتم مستضعفين بين الكفار. عن ابن عباس قال: "هى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار ويتخذوهم وليجة من دون المؤمنين إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين فيظهرون لهم اللطف ويخالفوهم في الدين".

- قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ قال الإمام القرطبي: قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ ﴾ أي يعضدهم على المسلمين ﴿ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ بين تعالى أن حكمه كحكمهم^(٢).

والخلاصة مما سبق أنه ليس كل صور الموالاتة للكفار - برغم تحريمها جميعاً - سواء في الحكم. فعنها ما هو كفر محض، ومنها ما هو كبيرة من الكبائر، ومنها ما هو دون ذلك.

وقد أجاد الدكتور سيد سعيد عبد الغني خير إجادة في بيان هذا التقسيم، وذلك في رسالته الجامعية (حقيقة الولاء والبراء في معتقد أهل السنة) التي حصل بها على شهادة

(١) ج ١ ص ١٩٥ - ١٩٦.

(٢) تفسير القرطبي: مج ٢ ج ٦ ص ١٩٠.

الماجستير والتي نشرت في كتاب يحمل نفس العنوان، وقد جاء فيها:

خلاصة عقيدة أهل السنة والجماعة في الولاء للكفار:

١ - أن منها ما هو كفر محض وانسلاخ من الدين مثل:

أ - التولي المطلق.

ب - مودتهم لأجل دينهم وسلوكهم، والرضا بأعمالهم، وتمني انتصارهم على المسلمين.

ج - طاعتهم في أمور التشريع.

د - اعتقاد مساواتهم بالمسلمين، وأن المسلمين لا ميزة لهم.

هـ - الوثوق بهم واثماتهم دون المسلمين.

و - نصرتهم ومساعدتهم على حرب المسلمين.

ز - التشبه بهم إعجاباً واستحساناً في قضايا التوحيد والعبادات، وكذلك التشبه المطلق بهم.

٢ - ومنها ما هو كبيرة من الكبائر، يكفر إذا استحلها مثل:

أ - اتخاذهم بطانة.

ب - مداهنتهم والتذلل لهم، وملاينة الحريين منهم.

ج - المبالغة في تعظيمهم ورفع شأنهم.

د - الدخول في سلطاتهم بدون حاجة ولا اقتضاء مصلحة عامة.

هـ - التشبه بهم في أخلاقهم وشعائيرهم كالموالد والأعياد.

و - الإقامة عندهم لمن لا يستطيع إعلان دينه مع قدرته على الهجرة.

٣ - ومنها ما هو أقل من ذلك نحو:

أ - ميل القلب غير الإرادي إلى الزوجة الكتابية، أو الابن غير المسلم أو من بذل إينسا

معروفًا، أو من كان صاحب خلق وأدب.

ب - مدحهم والثناء عليهم بدون مسوغ شرعي بغض النظر عن دينهم.

ج - مصادقتهم ومعاشرتهم.

- د - الثقة فيهم.
- هـ - العمل لديهم مع وجود الإهانة والاحتقار.
- و - إلقاء السلام عليهم.
- ز - الدعاء لهم بالصحة والعافية وطول العمر ودوام الاستقرار.
- ح - تمتعتهم في المناسبات العادية والأفراح مثل الزواج والسلامة من كارثة. فهذه تتراوح بين التحريم والكراهة بحسب الحال والملابسات.
- ٤ - وهناك أشياء مباحة لا تعد موالاة، مثل:
- أ - معاملتهم بالحسنى واللطف - لاسيما المسالمين منهم -.
- ب - الصدقة على محتاجيهم^(١).
- ج - الإهداء إليهم وقبول هديتهم.
- د - تعزيتهم في مصائبهم على الوجه المشروع^(٢).
- هـ - رد التحية عليهم، ورد السلام إذا سلموا تسليمًا صحيحًا^(٣) بقول (وعليكم).
- و - معاملتهم في العقود المالية للمباحة.
- ز - تأجيرهم المساكن والدور، بشرط ألا تتخذ بورة للفساد.
- ح - استعمالهم عند الحاجة إليهم في الأمور العادية.
- ط - السفر إليهم لأغراض مباحة، مع القدرة على إعلان الدين^(٤).
- ي - الإقامة عندهم لغرض صحيح، مع القدرة على إظهار الدين.
- ك - زيارتهم لغرض مشروع^(٥).
- وذلك كما زار النبي ﷺ اليهودي عند احتضاره وتلقينه الإسلام.

(١) انظر: الرأى والعناء في علاقة المسلم بغير المسلم، للدكتور/ عبد الله بن إبراهيم الطريفي (٦٨ : ٧٤) وذلك بصرف.
 (٢) انظر: "الأموال" لأبي عبيد (ص ٥٤١).
 (٣) انظر: "أحكام أهل الذمة" (٢٠٤/١).
 (٤) انظر: "أحكام أهل الذمة" (١٩٧/١) و"فتح الباري" (٤١/١١ - ٤٦).
 (٥) انظر: "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٣/٦).

ل - شمولهم بالرحمة العامة كما في الحديث الصحيح: "لا يرحم الله من لا يرحم الناس".

م - أخذ الجزية منهم وإقرارهم على دينهم.

ن - مصالحتهم ومسالتهم عند الحاجة، أو عندما يطلبونها.

س - مخالطتهم عند اللزوم، مع عدم الركون إليهم.

ع - الاستفادة مما عندهم في شؤون الحياة الدنيا - كالصنائع والنظم مما لا يدخل في التشريع^(١).

ف - أكل طعام أهل الكتاب، والزواج من نسائهم عند الحاجة.

ص - ائتمان بعضهم على بعض الأمور العادية^(٢).

فهذه وما أشبهها كلها مباحة - بل بعضها ربما يكون - مطلوباً - بشرط ألا تتجاوز الحدود والقيود التي وضعت لكل منها.

وبهذا يتبين لنا أن القول بإطلاق تحريم الموالاة بحيث تشمل الصور المباحة التي ذكرناها، أنه أمر يفقد الدقة والموضوعية، وكذلك التساهل في العلاقة مع غير المسلم فإنه يخجل بالعمق. والله أعلم.

وهذا الذي قاله الدكتور سيد سعيد عبد الغني هو ما أكد عليه تماماً.

- الحكم بغير ما أنزل الله:

ومما يتناقض مع توحيد الألوهية أيضاً أن يتخذ الإنسان حاكماً له غير الله .

لكن المسألة لها تفصيل فلا تترك على عواهنها

- يقول الإمام القرطبي: قوله تعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

و﴿ الظَّالِمُونَ ﴾ و﴿ الْفَاسِقُونَ ﴾ نزلت كلها في الكفار ثبت ذلك في صحيح

مسلم من حديث البراء وقد تقدم. وعلى هذا المعظم. فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب

كبيرة. وقيل: فيه إضمار أي ومن لم يحكم بما أنزل الله ردّاً للقرآن، وحينئذ لقول

الرسول عليه الصلاة والسلام فهو كافر قاله ابن عباس ومجاهد، فالآية عامة على هذا

(١) انظر: "عمدة القاري" (١٧٥/٨).

(٢) انظر: "مجموع فتاوي ابن تيمية" (١١٤/٤).

قال ابن مسعود والحسن: هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله مسن المسلمين واليهود والكفار أي معتقداً ذلك ومستحلاً له فأما من فعل ذلك وهو معتقد أنه ركب محرم فهو من فساق المسلمين وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

وقال ابن عباس في رواية: ومن لم يحكم بما أنزل الله فد فعل فعلاً يضاهي أفعال الكفار. وقيل: أي ومن لم يحكم بجميع ما أنزل الله فهو كافر فأما من حكم بالتوحيد ولم يحكم ببعض الشرائع فلا يدخل في هذه الآية. والصحيح الأول إلا أن الشعبي قال: هي في اليهود خاصة واختاره النحاس قال: ويدل على ذلك ثلاثة أشياء منها أن اليهود ذكروا قبل هذا في قوله: "للذين هادوا" فعاد الضمير عليهم، ومنها أن سياق الكلام يدل على ذلك، ألا ترى أن بعده "كتبنا عليهم" فهذا الضمير لليهود بإجماع. وأيضاً فإن اليهود هم الذين أنكروا الرجم والقصاص. فإن قال قائل: "من" إذا كانت للمجازاة فهي عامة^(١).

- ويقول الإمام ابن كثير في تفسيره: قال السدي: ومن لم يحكم بما أنزلت فتركه عمداً جاحداً وهو يعلم فهو من الكافرين. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال مسن جحد بما أنزل الله فقد كفر ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق. رواه ابن جرير ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب أي من جحد حكم الله المتزل في الكتاب. وقال عبد الرزاق عن الثوري عن زكريا عن الشعبي قال: الآية للمسلمين.

وقال ابن جرير عن ابن المثني عن عبد الصمد عن شعبة عن ابن أبي السفر عن الشعبي قال: هذا في المسلمين والظالمون في اليهود والفاسقون في النصارى. قال طاووس وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله. وقال الثوري عن ابن جريج عن عطاء أنه قال: كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق. وقال وكيع عن سعيد المكي عن طاوس قال: ليس بكفر ينقل من الملة. وعن ابن عباس قال: ليس بالكفر الذي تذهبون إليه. ورواه الحاكم في مستدرکه من حديث سفيان بن عيينة وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه^(٢).

ومن الواضح هنا أن ابن كثير يقرر اشتراط الجحود بما أنزل الله أو الاعتقاد بأفضلية شرع غيره أو المساواة معه لتكفير من لم يحكم بما أنزل الله ولكن البعض يشير إلى ما قاله ابن كثير عن موضوع الياسق فلتنظر ماذا قال

(١) انظر: "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٣/٦).

(٢) تفسير ابن كثير: ج ٢ تفسير الآية ٤٤ من المائدة.

يقول الإمام ابن كثير: "أفحكم الجاهلية ييغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون" ينكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون بها من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأرائهم وأهوائهم. وكما يحكم به التار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذي وضع لهم الياسق وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى عن اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعًا متبعًا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل أو كثير أهـ.

فيلاحظ في كلام ابن كثير هنا أنه قال: "فصارت في بنيه شرعًا متبعًا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله" أي أن الأمر هنا أمر تقلم أحكام الياسق على أحكام الله وليس مجرد تطبيق أحكام الياسق وترك أحكام الله.

- ويقول الشيخ الصابوني في صفوة التفاسير:

أي من لم يحكم بشرع الله كائنًا من كان فقد كفر. وقال الزمخشري: ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهينًا به فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون وصف لهم بالعنوة في كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهزاء والاستهانة وتمردوا بأن حكموا بغيرها. قال أبو حيان: والآية وإن كان الظاهر من سياقها أن الخطاب فيها لليهود إلا أنها عامة في اليهود وغيرهم. وكل آية وردت في الكفار تجر بذيلها على عصاة المؤمنين^(١).

- وفي زبدة التفاسير للدكتور محمد سليمان الأشقر:

وحكم هذه الآية لكل من ولي الحكم فحكم بغير شرع الله تعالى وهو يعلم. وقيل هو محمول على أن الحكم بغير ما أنزل الله وقع استخفافًا أو استحلالًا أو جحدًا (لا على من حكم به بالرغبة أو رشوة أو رهبة). عن ابن عباس: من جحد الحكم بما أنزل الله فقد كفر ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق. وعن ابن عباس أيضًا ليس بكفر ينقل عن

(١) مج ١ ص ٣٤٥.

الملة، بل كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

وقال: "التقية باللسان: من حمل على أمر يتكلم به وهو معصية لله فيتكلم به مخافة الناس وقلبه مطمئن بالإيمان فإن ذلك لا يضره إنما التقية باللسان، ولا يبسط يده فيقتل ولا إلى إثم فإنه لا عذر له"^(١).

(١) ص: ٥٣.

ثانياً: الإيمان بالملائكة

ونؤمن بوجود الملائكة وأنهم خلق من خلق الله خلقهم الله من نور وهم عباد الله مكرمون مجبولون على الطاعة و﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾.

"فمنهم الموكل بأداء الوحي إلى الرسل وهو الروح الأمين جبريل عليه السلام ومنهم الموكل بالصور وهو إسرافيل عليه السلام ومنهم الموكل بقبض الأرواح وهو ملك الموت. ومنهم الموكل بأعمال العباد وهم الكرام الكاتبون. ومنهم الموكل بالجنة ونعيمها وهم رضوان ومن معه ومنهم الموكل بالنار وعذابها وهم مالك ومن معه من الزبانية ورؤساؤهم تسعة عشر ومنهم الموكل بفتنة القبر، وهم منكر ونكير ومنهم حملة العرش. ومنهم الموكل بالنطف في الأرحام من تخليقها وكتابة ما يراد بها. ومنهم غير ما ذكر^(١) ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴾ (المدثر: ٣١).

ومما يتناقض مع الإيمان بالملائكة إنكار أحدهم أو السخرية منه.

ونؤمن أيضاً أن الجن مخلوقات من خلق الله وبينهم الصالح والطالح وقد خلقهم الله من النار وأن إبليس يقف على رأس الطالحين منهم وإهم يروننا من حيث لا نراهم وإهم ليسوا بضارين من أحد إلا بإذن الله وأن كيد الشيطان كان ضعيفاً وأنه ما من أحد يستعين بهم إلا ويزداد رهقاً وإهم محاسبون مثلنا عما يفعلون.

(١) ٢٠٠ سؤال في العقيدة الإسلامية: ص ٤١ - ٤٢ دار العقيدة - الطبعة الثانية.

ثالثاً: الإيمان بالكتب

ونؤمن بالكتب التي أنزلها الله على رسله ومنها كتب قد سماها الله ومنها ما لم يسم.
والكتب التي سماها الله هي:

- التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ (المائدة: ٤٤)

- الإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ (المائدة: ٤٦).

- الزبور الذي نزل على داود عليه السلام ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (الإسراء: ٥٥).

- الصحف التي أنزلها الله على إبراهيم وموسى ﴿ إِنَّ هَذَا لَيْهِ الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿٥﴾
صُّحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ (الأعلى: ١٨ ، ١٩).

- ونؤمن أن القرآن العظيم هو آخر كتاب أنزله الله وأنه كتاب معجز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٥﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤١)

- وأنه جاء بخلاصة التعاليم الإلهية التي جاءت في الكتب التي سبقتة على مر العصور ومهيماً ورقياً عليها. ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمًا عَلَيْهِ ﴾.

- وأنه الكتاب الرباني الوحيد الذي تعهد الله بحفظه وإحصانه من التحريف الذي أصاب الكتب التي سبقتة. ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

وأنه رسالة الله الخالدة للعالمين الصالحة لكل زمان ومكان والتي لا يأتيها الباطل أبداً. ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾.

رابعاً: الإيمان بالرسول

- ونؤمن بأنبياء الله ورسوله وأن الله قد سعى في كتابه العزيز وبعض الأنبياء والرسول ولم يسم أنبياء ورسلاً آخرين لا يعلم عددهم إلا الله.

- وأن دعوة الأنبياء والرسول جميعاً هي عبادة الله وتقواه والقسط بين الناس أي توحيده وإفراده وحده بالعبودية لا شريك له والكفر بالطواغيت والآلهة المزعومة التي ما أنزل الله بها من سلطان والعدل بين الناس.

﴿ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (النحل: ٣٦) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (الحديد: ٢٥)

فكما يقول ابن تيمية فإن "التوحيد أصل صلاح الناس والإشراك أصل فسادهم فمن ثم فإن القسط مقرون بالتوحيد إذ التوحيد أصل العدل".

- والمسلمون لا يفرقون بين أحد من الرسل لإيمانهم بأن الحق الذي جاعوا به واحد وذلك لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِمْ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِمْ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِمْ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ ﴾ (النساء: ١٥٠ - ١٥٢).

ومع ذلك فقد فضل الله بعضهم على بعض. ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ

الْقُدُسِ ﴿البقرة: ٢٥٣﴾.

وأولو العزم من الرسل هم خمسة على المشهور من أقوال العلماء وهم محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام أجمعين وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ - وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ (الأحزاب: ٧).

- والرسل بشر مثلنا ينطبق عليهم ما ينطبق على سائر البشر من خصائص طبيعية ولكنهم مع ذلك صفوة البشر الذين خصهم الله بروحيه فصاروا منارات الهداية إلى الحق و"عصمهم الله ونزههم عن الكذب والخيانة والكتمان والتقصير في التبليغ وعن الكبائر كلها والصغائر وقد يقع منهم زلات وخطيئات، أي عشرات بسيطة بالنسبة إلى ما هم عليه من علو المقامات كما وقع لآدم ^{عليه السلام} في أكله من الشجرة على وجه النسيان ولكنهم لا يقرون عليها بل يوفقون إلى التوبة منها"^(١).

- ونؤمن أن الله أيدهم بالمعجزات والآيات الباهرات ولكنهم مع ذلك لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً وليست لهم قوة ذاتية مؤثرة في الكون ولا يعلمون من الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه.

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَنَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨٨).

محمد ﷺ:

- ونؤمن أن محمد ﷺ هو أفضل الرسل جميعاً عليهم الصلاة والسلام.

- وأنه رسول الله إلى العالمين جميعاً.

﴿ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ١)

- وأنه خاتم النبيين فلا نبي بعده.

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (الأحزاب: ٤٠).

وقد جاء في حديث جامع متفق عليه: "فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع

(١) د. محمد نعيم ياسين - الإيمان: أركانه وحقيقته ونواقضه: ص ٤٩ . وانظر الفقه الأكبر لأبي حنيفة شرح الملا محمد علي القاري ص ٥٧.

الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت الأرض لي طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلائق كافة وختم بي النبيون".

ويتناقض مع هذا الإيمان

- الاعتقاد بأن هناك إمام من الأئمة أفضل من أحد من هؤلاء الأنبياء.
- الاعتقاد بأن هناك ولي من الأولياء أفضل من أحد من هؤلاء الأنبياء.
- الاعتقاد بأن هناك من البشر من هو معصوم مثلهم.
- الاعتقاد بأن هناك نبي آخر بعد النبي محمد ﷺ.
- سب أحد هؤلاء الأنبياء.
- الاستهزاء أو التحقير من شأن أي نبي من الأنبياء صلى الله وسلم عليهم أجمعين.

خامساً: الإيمان باليوم الآخر

الروح وقبضها:

الروح سر من أسرار الله " لم يطلع عليه أحد سواه ولم يعط الإنسان الوسائل التي توصله إليه" (١).

قال تعالى: ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

فلا نستطيع أن نعرف عن الروح إلا بعض الأحوال التي أطلعنا الله عليها يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ومذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر سلف الأمة ليست هي البدن ولا جزء من أجزائه" (٢).

وإذا تعلق الروح بالجسد سميت نفساً (٣).

والنفس اللوامة والنفس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء ليست ثلاثة نفوس مختلفة وإنما هي أحوال للنفس الواحدة تسمى باسم الحال الذي يغلب عليها. والروح "مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها" (٤).

ومن دلائل ذلك قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ (الإنسان: ١).

وقد جاء بيان كيفية التوفي ومآل الروح بعده في حديث البراء بن عازب الطويل، وهذا نصه:

عن البراء بن عازب رضي الله عنه: قال كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا

(١) سيد سابق - العقائد الإسلامية: ص ١٩٥.

(٢) نقلاً عن الشيخ صالح الفوزان - الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد.

(٣) راجع تفسير ابن كثير وكتاب الروح لابن القيم.

(٤) ابن تيمية - نقلاً عن الشيخ صالح الفوزان - مرجع سابق: ص ٣٠٣.

حوله كأن على رؤسنا الطير وهو يلحد له فقال: "أعوذ بالله من عذاب القبر ثلاث مرات" ثم قال: "إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا، نزلت إليه الملائكة كأن على وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، فجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه فيقول: يا أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان

قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السماء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة غين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض". قال: "فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذا الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان بأطيب أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى يتتهاها إلى السماء فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى".

قال: "فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول ربي الله. فيقولان له ما دينك فيقول ديني الإسلام. فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هو رسول الله. فيقولان له وما علمك فيقول قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت. فينادي مناد من السماء أن صدق عبي فإفرشوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة".

قال: "فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره".

قال: "ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعده فيقول له من أنت فوجهك الذي يجيء بالخير فيقول أنا عمك الصالح. فيقول رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي".

قال: "وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب".

قال: "فتفرق روحه من جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول

فياخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك الوسوح ويخرج منها كأنن ربح خبيثة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملامن الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الخبيث فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له".

ثم قرأ رسول الله ﷺ: "لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط" فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرْحًا".

ثم قرأ: "ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق" فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدري. فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدري. فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فافرشوه من النار وافتحوا له بابًا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب متن الريح فيقول أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر فيقول أنا عمك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة". رواه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم وأبو عروانة وابن حبان في "صحيحيهما".

قال شارح الطحاوية: "وذهب إلى موجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث، وله شواهد في الصحيح".

عذاب القبر:

ونؤمن بما أخبرنا به الرسول ﷺ من أن "العبد إذا نزل في قبره وتولى عنه أصحابه إنه يسمع قرع نعالم، قال: يأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ قال: فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله، قال فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة"^(١).

وما أخبر به من أن المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول لا

(١) أخرجه من حديث الترمذي: أحمد برقم (١٨٧٣٣) (٣٢١/٦) وأبو داود: كتاب السنة، باب (٢٧) رقم (٤٧٥٣) (٧٥/٥) مختصرًا، والحاكم: كتاب الإيمان، رقم (١١٤)، (١٩٨/١).

أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: "لا دريت ولا تليت" (١).

بداية اليوم الآخر:

ونؤمن بأن اليوم الآخر يبدأ بنفخ إسرافيل النفخة الأولى فيصعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا ما شاء الله تعالى ويحدث تدمير رهيب وتغيير كامل في الكون فتشقق السماء وتتناثر النجوم وتفتت الأرض وتصبح الجبال كثيباً مهيباً. كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (الزمر: ٦٨).

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۗ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۗ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۗ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ (الحاقة: ١٣ - ١٦).

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ ۗ وَتَرَوُنَّ اللَّهَ الْقَهَّارَ ﴾ (إبراهيم: ٤٨).

وروي أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك. أين ملوك الأرض" رواه البخاري.

البعث:

ثم تكون النفخة الثانية فيبعث الناس أرواحاً وأجساداً ويخرجون من الأجداث فيقول الكفار والمنافقون: ﴿ يَتَوَلَّوْنَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا ﴾ (يس: ٥٢). ويقول المؤمنون: ﴿ مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (يس: ٥٢).

الحشر:

ويحشر الناس جميعاً الى الموقف العظيم كما خلقوا أول حفاة عراة غير محتنين حيث "يصيب الخلائق كرب شديد" فقد روى المقداد بن الأسود عن رسول الله ﷺ أنه قال: "تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل" (٢) فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق منهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من

(١) انظر: "شرح الطحاوية" للقاضي ابن أبي العز (٥٧٦/٢).

(٢) متفق عليه.

يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إجمامًا، وأشار ﷺ بيده إلى فيه " صحيح مسلم.
 وفي أثناء ذلك يكون أناس في ظل الله عز وجل كما أخبر المصطفى عليه الصلاة
 والسلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه وأبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "سبعة يظلهم الله في
 ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل. وشاب نشأ في عبادة الله. ورجل قلبه معلق
 بالمساجد. ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه. ورجل دعته امرأة ذات منصب
 وجمال فقال: إني أخاف الله. ورجل تصدق بصدقة وأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت
 يمينه. ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه" متفق عليه واللفظ لمسلم^(١).

وفي هذا الهول الشديد يلجأ الناس إلى الأنبياء والرسل يستشفعون بهم إلى الله أن
 ينقذوهم مما هم فيه ويعجل لهم فصل القضاء وكل رسول يحيلهم إلى ما بعده حتى يأتوا
 الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ويقبل الله شفاعته.

الحساب والميزان:

ونؤمن أن كل إنسان تعرض أعماله يوم القيامة ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ
 وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ ﴿١٣﴾ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك
 حسيبًا ﴿ (الإسراء: ١٣ - ١٤).

﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَكَّرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ
 لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾
 (الكهف: ٤٩).

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ
 حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَلَّمْنَا بِنَا حَسِيرِينَ ﴾ (الأنبياء: ٤٧).

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ﴿٦﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ (الزلزلة:
 ٨، ٧)

﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ
 الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿ (الأعراف: ٨ - ٩).

(١) متفق عليه.

القصاص في المظالم:

وأن كل مظلمة كبيرة أو صغيرة يقضى بها يوم القيامة ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ (غافر: ١٧).

﴿ وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٦٩).

وكما قال الرسول ﷺ: "أول ما يقضى بين الناس في الدماء" رواه البخاري ومسلم وغيرهما. ولا مظلمة في دينار أو درهم إلا ويقضى فيها ولذلك قال الرسول ﷺ: "من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منه اليوم فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحته عليه" رواه البخاري وغيره.

الحوض:

ونؤمن بأن الله خص نبيه وأمه بحوض عظيم طوله مسيرة شهر من شرب منه لا يظلم أبداً وأول من يرد عليه هو الرسول ﷺ "ثم ترده بعده أمته ويطرد عنه الكفار وطائفة من العصاة وأهل الكبائر وذلك بعد الانتهاء من الموقف بما فيه من أهوال وعرض وحساب"^(١).

وقد قال الرسول ﷺ: "أنا فرطكم (متقدمكم ومرشدكم) على الحوض من ورد شرب ومن شرب لم يظلم أبداً وليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يحال بيني وبينهم فيقول ﷺ: إهم أمي فيقال: إنك لا تدري ما عملوا بعدك. فأقول سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي" صحيح مسلم.

الصراط:

ونؤمن أن الناس برهم وفاجرهم سيمرون جميعاً على الصراط المنصوب على جهنم، وتكون سهولة أو صعوبة ذلك بحسب أعمالهم في الدنيا فمنهم من يمر فوقه ومنهم من يتهاوى في الجحيم، وبجهنم كلاليب تخطف الناس بأعمالهم. فالشقي يسقط في الجحيم والصالح يعبر فوقه إلى الجنة.

(١) محمد نعيم ياسين - الأمان: ص ١٠٢

الجنة والنار:

يقول الرسول ﷺ: " إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادى مناد: يا أهل الجنة: لا موت، يا أهل النار: لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم". صحيح البخاري مع فتح الباري.

سادساً: الإيمان بالقدر خيره وشره

ونؤمن بالقدر خيره وشره.

فنؤمن أن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً وأبدًا وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال، ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق.. فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام، وطويت الصحف. كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (الحج: ٧٠).

وقال: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾. (الحديد: ٢٢)^(١).

ونؤمن بأن "ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وإنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه ما لا يريد، وأنه سبحانه على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره، ولا رب سواه"^(٢).

ونؤمن أيضا أن "للعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة والله عاقلهم وقدرتهم وإرادتهم، كما قال تعالى: ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۗ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (التكوير: ٢٨ - ٢٩)^(٣).

ويناقض ذلك الإيمان:

- إنكار قدر الله خيره أو شره.

(١) ابن تيمية - العقيدة الوسطية (متون التوحيد): ص ٢٣٣ - ٢٣٤.

(٢) المرجع السابق: ص ٣٤ - ٣٥.

(٣) المرجع السابق: ص ٣٥ - ٣٦.

- سب قدر الله خيره أو شره.

- الاعتقاد أن هناك إرادة في الكون يمكنها أن تفعل ما لا يريد الله أن يكون.

- التشاؤم من بعض الأشياء والاعتقاد بتأثيرها على مجرى الأحداث كروية الغربان أو اليوم أو القطط السوداء أو أشياء كثيرة غير ذلك. لأن كل ما يحدث في هذا الوجود هو بقدر الله وحده ولذلك قال الرسول ﷺ: "الطيرة شرك، الطيرة شرك، الطيرة شرك" قالها ثلاث مرات رواه أبوداود والترمذي وصححه الألباني. والمقصود بالطيرة التشاؤم

حقيقة الإيمان

الإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان وينقص.

ونؤمن بأن الإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان وعم بالأركان.

قال الإمام الشافعي في كتابه الأم: "كان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناه يقولون: فإن الإيمان قول وعمل ونية لا تجزئ واحد من الثلاثة إلا بالأخرى".

وقال الإمام أحمد بن حنبل: "كان القول أن الإيمان قول وعمل عند أهل السنة من شعائر السنة".

وقال اسحاق بن راهويه: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

وهذا ما ذهب إليه أيضاً الأوزاعي بالشام وسفيان الثوري بالعراق ومالك بن أنس بالحجاز.

وقال الحافظ ابن عبد البر في كتابه التمهيد: "أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعات وينقص بالمعصية، الطاعات كلها عندهم إيمان. إلا ما ذكر عن الإمام أبي حنيفة^(١)".

قال الإمام ابن تيمية: "ومن أصول أهل السنة والجماعة أن الدين والإيمان قول وعمل. وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية"^(٢).

وقال الإمام ابن القيم:

واشهد عليهم أن إيمان الوري قول وفعل ثم عقد جنان.

(١) أسهبنا في ذكر أقوال الأئمة الذين ذهبوا إلى أن الإيمان قول وتصديق وعمل يزيد وينقص نظراً لمكانة الإمام أبي حنيفة الذي ذهب

إلى أن الإيمان قول وتصديق بالقلب فقط ولا يزيد ولا ينقص ولكن الحق أحق أن يتبع مهما كانت مكانة من شذ عن ذلك.

(٢) العقيدة الواسطية - متون التوحيد: ص ٢٣٦.

نواقض الإيمان

القاعدة في نواقض الإيمان هي جحود ما هو ثابت بالإجماع أنه معلوم من الدين بالضرورة أو الاستهزاء أو الاستخفاف به.

وكل ما جاء من تقسيمات للعلماء في تفصيل ذلك هي مجرد مصطلحات فنية تعين على شرح هذه القاعدة الجامعة سواء ذهبوا إلى تقسيم نواقض الإيمان إلى ثلاث أو أربع أو عشرة أو أقل أو أكثر.

ويقول الإمام ابن حجر الهيتمي في شرح هذه القاعدة الجامعة في كتابه الزواجر عن اقتراف الكبائر:

ثم شرع في بيان تفصيلات كثيرة لهذه القاعدة التي ذكرها فقال: "وفي معنى ذلك كسل من فعل فعلاً أجمع المسلمون على أنه لا يصدر إلا من كافر وإن كان مصرحاً بالإسلام، كالمشي إلى الكنائس مع أهلها بزيهم من الزنانير وغيرها، أو يلقي ورقة فيها شيء من القرآن، أو فيها اسم الله - ﷻ - في نجاسة، أو يشك في نبوة نبي أجمع عليها، أو إنزال كتاب كذلك كالتوراة أو الإنجيل أو زبور داود أو صحف إبراهيم عليه السلام، أو في تكفير كل قائل قولاً يتوصل به إلى تضليل الأمة، أو تكفير الصحابة، أو الشك في مكة أو الكعبة أو المسجد الحرام، أو في صفة الحاج، أو هيئته المعروفة، وكذا الصوم والصلاة، أو استحلال محرماً كذلك، كالصلاة بغير وضوء أو استحلال إيذاء مسلم أو كافر ذمي بلا مسوغ شرعي بالنسبة إلى اعتقاده، أو حرم حلالاً كالبيع والنكاح، أو يقول عن نبينا ﷺ: كان أسود أو توفي قبل أن يلتحي، أو ليس بقرشي أو عربي أو أنسي؛ لأن وصفه بغير صفته تكذيب له. ويؤخذ منه أن كل صفة أجمعوا على ثبوتها له يكون إنكارها كفراً، كما لو جوز بعثة بعده. وقال: لا أدري أهو الذي بعث بمكة ومات بالمدينة أو غيره، أو قال: إن النبوة مكتسبة، أو أن رتبها يوصل إليها بصفاء القلب أو يقول: الولي أفضل من النبي وأنه يوحى إليه وإن لم يدع نبوة، أو يدخل الجنة قبل موته، أو يعيب نبينا محمداً ﷺ ومثله غيره من

الأنبياء بل والملائكة. أو يلعنه أو يسبه، أو يستخف أو يستهزئ به، أو يلحق به نقصًا في نفسه أو نسبه أو دينه أو فعله أو يعرض بذلك، أو يسبه بشيء عن طريق الازدراء أو التصغير لشأنه، أو الغض منه، أو تمنى له معرة، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم، أو عبث في جهته العزيزة بسخف من الكلام وهجر ومنكر من القول وزور، أو غير شيء مما جرى من البلاء والمحنة عليه، أو غمضه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه، فيكفر بواحد مما ذكر إجماعًا، فيقتل ولا تقبل توبته عند أكثر العلماء، وقد قتل خالد بن الوليد رضي الله عنه من قال له: (عند صاحبكم)، وعد هذه الكلمة تنقيصًا له رضي الله عنه."

ثم قال ابن حجر: "أو يرضى بالكفر ولو ضمنا، كأن يشير على كافر بأن لا يسلم وإن لم يستشره... أو سؤال الكفر لغيره لأنه رضى به، أو يقول لمسلم: يا كافر بلا تأويل لأنه سمى الإسلام كفرًا، أو يسخر باسم الله تعالى أو نبيه بأن يصغره، أو يسخر بأمر الله أو نبيه أو وعده أو وعيده كأن يقول: لو أمرني بكذا لم أفعله، أو لو جعل القبلة هنا ما صليت إليها، أو لو أعطاني الجنة ما دخلتها استخفافًا أو عنادًا، أو يقول لو أخذني بترك الصلاة مع ما في من الشدة والمرض ظلمي. أو قال ظالم لمظلومه القائل (هذا الظلم بتقدير الله): أنا أفعل بغير تقدير الله. أو قال: لو شهد عندي ملك أو نبي ما صدقته، أو لو كان فلانًا نبيًا ما آمنت به، أو قال: إن كان ما قاله النبي صدقًا نجونا... أو قيل له: قلم أظافرك فإنه سنة، فقال: لا أفعل وإن كان سنة، استهزاء، أو قال: لا حول ولا قوة إلا بالله لا تغني من جوع، ومثلها في ذلك سائر الأذكار كما هو ظاهر، أو قال: المؤذن يكذب، أو شبه صوته بناقوس الكفر، أو استخف بالأذان، أو سمى الله على محرم استهزاء، أو قال: لا أخاف القيامة استهزاء، أو قال عن الله: لا يتبع السارق ناسبًا العجز إليه.. أو نسب الله تعالى إلى جور في التحريم، أو لبس زي كافر ميلاً إلى دينه، أو قال: اليهود خير من المسلمين.. أو قيل له: ما الإيمان؟ فقال: لا أدري استخفافًا، أو أنكر صحبة أبي بكر، أو قذف عائشة رضي الله عنها، لأنه مكذب للقرآن بخلاف غيرهما، أو قال: أنا الله ولو مازحًا، أو قال لا أدري حقه جحدًا للواجبات... أو قال استخفافًا: شبت من القرآن أو الصلاة أو الذكر أو نحو ذلك، أو قال: أي شيء المحشر أو جنهم؟ أو قال: لعنة الله على العالم، إذا قصد الاستغراق لشموله الأنبياء والملائكة، أو قال: أي شيء هذا الشرع، وقصد الاستخفاف.

أو قال: إذا ظهرت الربوبية زالت العبودية وعنى بذلك رفع الأحكام، أو أنه فني من

صفاته الناسوتية إلى اللاهوتية [أي أنه أنتقل من صفته البشرية وتحول إلى الألوهية]، أو أنه يرى الله عياناً في الدنيا أو يكلمه شفاهاً، أو أنه يحل في صورة حسنة، أو أنه أسقط عنه التكليف، أو قال: العبد يصل إلى الله ﷻ من غير طريق العبودية، أو قال: الروح من نور الله فإذا اتصل النور بالنور اتحد" (١).

(١) عن كتاب الزواجر عن ارتكاب الكبائر لابن حجر المكي ج ١ ص ٢٨ - ٣٠، وانظر أيضاً كلاماً قريباً من هذا في معنى المحتاج ج ٤ ص ١٣٥، ١٣٦، حاشية الباجوري ج ٢ ص ٢٥٧.

محاذير هامة جداً للحد من الشطط في التكفير

– عدم التسرع إلى تكفير العوام أو الحدباء عهد بكفر والسعي إلى تبليغهم العقيدة بدلا من ذلك.

يقول الله ﷻ: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا ﴾. وعن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدباء بكفر. وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بما أسلحتهم، يقال لها ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر إنها السنن، قلمم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: "اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون".

وسدرة ذات أنواط: سدرة كان المشركون يعظمونها ويعلقون عليها أسلحتهم للتبرك، وما وقع الذين سألوه في هذا الخطأ إلا لكونهم حدباء عهد بكفر أي لم يسلموا إلا من وقت قريب ولذلك علمهم الرسول ﷺ أن قولهم هذا مثل قول بني إسرائيل لموسى: "اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة" وأن موسى رد عليهم بقوله: "إنكم قوم تجهلون" وفي الحديث أيضا من دلائل النبوة الإخبار بما حدث في واقع المسلمين من انتشار هذه المفاهيم الشركية بينهم كنفس ما وقع لبني إسرائيل.

ونفس الأمر ينطبق على الداخلين في الإسلام حديثًا أو المتقلبين إليه من المذاهب والتيارات الملحدة.

وبشابه ذلك كثيرًا ما يمكن أن يصدر عن عوام المسلمين في الدول التي لا يتشر فيها التعليم الديني الصحيح ولا يعرف هؤلاء العوام فيها عن الإسلام إلا أقل القليل.

– إن هناك كفر أكبر وكفر أصغر:

ويجب أيضا الأخذ في الاعتبار ما ذهب إليه العلماء من تقسيم الكفر إلى كفر أكبر وكفر أصغر الذي ذكرناه من قول ابن عباس: "كفر دون كفر" والمقصود بذلك أنه كفر

لا يخرج عن الملة.

وقد مثل العلماء للكفر الأصغر بالخلف بغير الله وسب الدهر وسب السريح والرياء بالإعمال الصالحة^(١).

– الاحتياط في تكفير المعين:

يقول الإمام ابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية:

"إن الأقوال الباطلة المبتدعة المخرفة المتضمنة نفي ما أثبتته الرسول أو إثبات ما نفي عنه أو النهي عما أمر به يقال فيها الحق ويثبت لها الوعيد الذي دلت عليه النصوص ويبين أنها كفر، ويقال: من قالها فهو كافر ونحو ذلك.

إنما الشخص المعين إذا قيل هل تشهدون أنه من أهل الوعيد وأنه كافر؟ فهذا لا نشهد عليه إلا بأمر تجوز معه الشهادة، فإنه من أعظم البغي أن نشهد على معين أن الله لا يغفر له ولا يرحمه، بل يخلده في النار فإن هذا حكم الكافر بعد الموت.

ولأن الشخص المعين يمكن أن يكون مجتهدًا مخطئًا مغفورًا ويمكن أن يكون ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص"^(٢)

فإذا كان هذا هو كلام أحد أهم أئمة علم التوحيد في التاريخ الإسلامي فما بالنا نرى الجهلاء يتبارون في تكفير الناس وكأن هناك هدية وراء ذلك.

– الحذر الشديد في تطبيق قاعدة من لم يكفر الكافر فهو كافر:

من المهم جدا أن نعلم أن المقصود من تطبيق قاعدة من لم يكفر الكافر فهو كافر، الكافر المتيقن من كفره كإبليس وفرعون وهامان أو من اتفق العلماء على كفره، وليس المقصود من ذلك أن تطبيق هذه القاعدة على من هو مشكوك في كفره أو من أطلق لفظ الكفر عليه أحد العلماء دون سواه وأحجم الآخرون عن إطلاق هذا الحكم عليه، ومن المعلوم أن عدم الأخذ في الاعتبار المقصد من هذه القاعدة قد أوقع الأمة في مصائب لا حصر لها.

(١) راجع الشيخ صالح بن عبد الله الفوزان.

(٢) ص ٣٥٧.

مراجع هذا القسم

- القرآن الكريم
- تفسير القرطبي
- تفسير ابن كثير
- صفوة التفاسير: الصابوني
- زبدة التفاسير: الأشقر
- تفسير البيضاوي
- صحيح البخاري
- الأربعون النووية وشرحها: للإمام النووي
- رياض الصالحين: الإمام النووي
- الإيمان - أركانه وحقيقته ونواقضه: د. محمد نعيم ياسين.
- ٢٠٠ سؤال في العقيدة الإسلامية: الشيخ حافظ بن أحمد حكيم
- معارج القبول: الشيخ حافظ بن أحمد حكيم
- العقيدة الواسطية: ابن تيمية
- العبودية: ابن تيمية
- أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيمية
- الإيمان: ابن تيمية
- الفتاوى الكبرى: ابن تيمية
- الصارم المسلول على شاتم الرسول: ابن تيمية

- اقتضاء الصراط المستقيم: ابن تيمية
- الفرقان بين الحق والباطل: ابن تيمية
- قاعدة جلية في التوسل والوسيلة: ابن تيمية
- الصلاة وحكم تاركها: ابن القيم
- الروح: ابن القيم
- الفقه الأكبر: للإمام الشافعي
- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: الشيخ حسن آل الشيخ
- العقيدة الطحاوية: الإمام الطحاوي.
- شرح العقيدة الطحاوية: القاضي ابن أبي العز الحنفي
- لمعة الاعتقاد: ابن قدامة المقدسي
- التوحيد الذي هو حق الله على العبيد: الإمام محمد بن عبد الوهاب
- كشف الشبهات: الإمام محمد بن عبد الوهاب
- نواقض الإسلام: الإمام محمد بن عبد الوهاب
- تطهير الجنان والأركان عن درك الشرك والكفران: الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي
- شرح العقيدة الواسطية: محمد خليل هراس
- الولاء والبراء في الإسلام: محمد بن سعيد القحطاني
- الولاء والبراء في الإسلام: الشيخ صالح الفوزان
- منهج أهل السنة في الولاء والبراء: د. سيد سعيد عبد الغني
- الإشارة إلى صحيح الاعتقاد: الشيخ صالح الفوزان.
- حقيقة التوحيد: الشيخ محمد حسان
- الدين الخالص: محمود خطاب السبكي
- منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات: محمد أمين الشنقيطي.

- شرح أصول الإيمان: محمد بن صالح بن عثيمين.
- الحد الفاصل بين الإيمان والكفر: عبد الرحمن عبد الخالق
- ظاهرة الغلو في التكفير: يوسف القرضاوي
- دعاة لا قضاة: المستشار حسن الهضيبي
- الله في العقيدة الإسلامية: الشيخ حسن البنا
- العقائد الإسلامية: الشيخ سيد سابق
- عقيدة المسلم: الشيخ محمد الغزالي
- الاقتصاد في الاعتقاد: حجة الإسلام الغزالي
- العدل قوام العالمين من كلام ابن تيمية: عبد السلام بن عبد الكريم
- الفصل في الملل والأهواء والنحل: الامام ابن حزم
- الملل والنحل: الشهرستاني
- إسلام بلا مذاهب: د. مصطفى الشكعة
- الحضارة الإسلامية: الإمام المودودي
- الإسلام النفعي: محمد إبراهيم مبروك.
- المنة شرح اعتقاد أهل السنة: دكتور ياسر برهامي.
- العقيدة الإسلامية من الكتاب والسنة الصحيحة: دكتور محمد جميل زينو.
- غاية المرام في علم الكلام: للأمدي.

القسم الثاني

منهج في بناء الشخصية القوية

هذا المنهج

يقوم هذا المنهج على تحرير إرادة الإنسان وإرساء ركائز القوة الإيجابية فيه وإدراكه بالوعي الإيجابي الحقيقي في مواجهة الوعي الزائف المشاع وإرساء قيم المواجهة داخله، وقد قصدنا أن لا نضع هذا المنهج في صيغة أكاديمية لا يتسجم أسلوبها إلا مع الأكاديميين، إنما قصدنا أن نوجه حديثنا إلى القارئ المقصود مباشرة بلغة تحفيزية تساعد على الاستجابة لما ندعوه إليه.

أرض الصراع

ما الذى حدث؟

ما الذى جعل الجنون أمرًا طبيعيًا؟

ما الذى جعل العار أمرًا سائغًا ومقبولاً لا يثير استياء أحد؟

ما الذى جعل الضياع هو القاعدة التى يدعى الجميع أنه لا مفر منها؟

ما الذى جعل المنطق طريداً منبوذاً ومتهماً بالجنون؟

ما الذى جعل الشرف محاصراً ومتهماً ومطالباً بالدفاع عن نفسه؟

ما الذى جعل الإصرار على المضى فى الطريق المستقيم أمرًا بعيد المنال يعلن الجميع عدم

القدرة على تحمل مشاقه؟

ما الذى حدث؟

إن مجرد السقوط بدأ قديماً ولكن السقوط الكبير بدأ من أعلى منذ أواسط السبعينيات.

سقطت البلاد فى ذل التبعية وانهارت القيم، وطغت المفاهيم النفعية الأمريكية على كل

شئ حتى أننا أصبحنا نقوم بتجمع فيهم كل نقائص الدنيا ومع ذلك يُرفَعون فيها إلى أعلى
عليين لا لشيء إلا لسبب واحد وهو أنهم امتلكوا المال.

من أين امتلكوا هذا المال؟

ما القضية؟ الكل يعلم أنه من الحرام، ولكن قلة قليلة هى التى أصبح يهمها هذا الأمر،

المهم أنهم امتلكوا الوسيلة التى جعلتهم يحصلون على أشياء فى الواقع يجزم العقلاء باستحالة

تحقيقها بالنسبة إليهم حتى بعد أن يحصلوا عليها، بينما يعجز الشرفاء عن تحقيق أبسط

الاحتياجات الضرورية فى الحياة.

لقد استطاعوا بذلك أن يرفعوا راية (لا إله إلا المال) بل استطاعوا أن يجعلوا من المال

وثنا يُعَبَّدُ من دون الله، وليست المسألة فقط عمل الإعلام الدءوب على اتساع فوهة أوعية المجتمع الاستهلاكية لكل المنتجات مهما كانت تفاهتها، وإنما المشكلة الأكبر هي عملية الإغراء المُلحَّ لشراء أشياء ترفيحية يشعر أمامها الأغلب الأعم من الشعب المصرى المطحون بمدى تعاسة حياته، ونفاذ صبره، وعدم قدرته على الاستمرار في هذه الحياة، أضف إلى ذلك ما تصاحبه الإعلانات التي يبثها هذا الإعلام من خلاعات وإغراءات جنسية، تقوم بها فتيات رائعات الجمال قد تم اختيارهن بمهارة تجارية فائقة، وبهذا يكتمل الحلم البرجماتي الشديد الإغراء الذي تقدمه الإعلانات لمجتمعنا البسيط الضعيف التحمل لمشمل هذه الإغراءات، فالحلم البرجماتي الذي تقدمه الإعلانات عبارة عن حياة غارقة في الترف والمتع والملذات التي لا يكاد يستطيع أن يحيا مثلها إلا الملوك والأمراء وأرباب النفوذ والمال.

والناس محاصرة داخل واقع اقتصادى طاحن يرتع فيه إعلام مُوجَّهٌ يُروِّجُ لقيم أمريكية نفعية (برجماتية) غازية تجعل من المنافع المقياس الوحيد للحقائق، وتجعل من المسال الإله الوحيد الذي بيده حل كل مشاكل الحياة وتضفى عليه كل أثواب الفخر والعزة والكرامة والقوة والرفعة، وتجعل من الفقر قريناً للعار والانحطاط والوضاعة، وكما جاء على لسان أحد أبطال فيلم مصرى (مفیش عار أكبر من الفقر) مفضلاً بذلك أن يُتَّهَمَ بعار الطعن في شرف أخته على أن يُتَّهَمَ بعار الفقر^(١).

لقد فقدت الحياة معانيها الجميلة وأصبح الضلال سيداً مُهَاباً يمضى مزهواً في الشوارع ويلقى من الناس الإجلال والتقدير والاحترام.

أيهما سيُحترَمُ وأيها سيُذَرَى؟ شرف مع الفقر أم عار مع الغنى؟..

إن الناس لن تهتم في الأمر إلا بالغنى.. ولن تعد هناك أهمية بعد ذلك للفرقة بين الأمرين: الشرف أم العار!!!

قيم تغفر لكل الأشياء ما دامت ثمر.

لتكن حياتك كلها تمثيلية مزيفة كبيرة... ليكن واقعك كله كذب في كذب.

لتعش حياتك في ضياع كامل، وتغ جيداً أن مالك حرام في حرام، وأنتك محاط بالعار من كل اتجاه، وأنه لا استقرار لك، وأنتك قد فقدت الإحساس بكل متع الحياة، بل

(١) حسين فهمى في فيلم (العار).

وفقدت القدرة على أن تكون لك أى رغبة حيوية من رغبات الحياة، وأنه لا مستقبل لك،
وأنت مهدد بالانهيار التام فى أية لحظة.
كل هذا ليس مهماً.

لا تجهد نفسك فى البحث عن أى حل ينقذك من هذا الضياع.
ولكن ابحث عن شئ واحد.

ابحث عن أية وسيلة تبرر بها كذبك.. ابحث عن أية وسيلة تستمد منها المزيد من
الكذب والزيف اللذين تستطيع بهما أن تتستر على واقعك وضياعك.

ابحث عن أية وسيلة تستطيع بها أن تكسب ولو القليل من الوقت الذى يؤجل وقوع انهيارك
حتى ولو كان ثمن هذا التأجيل أن يكون الانهيار أكبر وأفدح ولا علاج له على الإطلاق.
افعل أى شئ ليس هذا هو المهم.

المهم هو شئ واحد.. هو أن تمر الأمور، هو أن (الحكاية تعدي)، هو أن يكون هناك
ميراثات - أية ميراثات - للاستسلام والضياع والانهيار.

هذه هى القيم (البرجماتية) الجديدة بعد تفاعلها مع واقعنا المصرى.

لا حق ولا باطل ولكن المنفعة هى المعيار الوحيد لكل الأشياء.

المال هو الإله الوحيد.

الحفاظ على البرواز الاجتماعى هو أهم شئ فى الحياة.

ليس من المهم إنقاذ الأمور ولكن المهم التبرير والتمرير، ولكن المهم امتلاك القدرة على
جعلها تُمرُّ (والحكاية تعدي) والاستعانة فى سبيل ذلك بأكثر قدر من الميراثات والكذب
والزيف.

اختزال المفاهيم

لم تعد المفاهيم التي يعقلها الناس عن الأشياء كما كانت من قبل فقد أغارت البرجماتية على كل شيء وأعطته مفهومه النفعي الجديد واختزل الكمبيوتر البرجماتي القيم الأصلية المُستمدَّة من ديننا الحنيف إلى قيم جديدة تتوافق مع العبث البرجماتي وانتهازيته.

فالواقعية صارت تعني الاستسلام للأمر الواقع.

والحق والصدق صارا يعنيان التبرير والتمرير.

والإخلاص صار يعني قصد العبودية للمال لا غيره.

أما الكرم فهو قرض مؤقت مشروط بالسداد بأعلى الأرباح.

والتضحية صارت تعني البذل من أجل تحقيق أقصى المنافع.

أما الحب فهو جنس ولذة.

والصداقة شركة نفعية قابلة للتغيير والتبديل.

والأمان هو النوم على سرير من المال بأية طريقة.

والحكمة هي القدرة على تكديس الثروات واستغلالها.

والنجاح هو تحقيق أكبر رصيد متراكم من الأموال.

والشجاعة تهور.

والثقافة جنون لا معنى له.

والإسلام هو كل ما لا يتعارض مع المصالح والمنافع، إن لم يكن هو كل ما يساعد على تحقيقها.

والحياة كلها هي مجموعة من الرغبات المادية المفرغة من العواطف والشعور

والأحاسيس الإنسانية.

أما الكذب فهو فن لا يتمتع به إلا الأذكياء.

والخيانة واقعية.. والنفاق لباقة.

والنصب والسرقة والرشوة والاختلاس والاستغلال شطارة ومهارة يقتضيها العصر.

والجبين حلم.

واحتقار الفقراء رفعة.

واستغلال أزمة المتأزمين ضرورة.

وهكذا اختزلت باقى القيم والمفاهيم.

هل الإسلام ضد المنفعة؟

قد يصرخ فينا معترض فيقول: ما كل هذا الضجيج المفتعل حول المنفعة؟ أليس من الطبيعي جداً أن يحرص كل إنسان على ما ينفعه ويسعى إليه ويدفع عن نفسه كل ما يضره؟ أليس الإسلام ذاته يحرصنا على أن يحرص كل منا على نفسه؟ ومن الذى قال إن الإسلام ضد المنفعة؟

إن الرد على كل هذه التساؤلات يتركز فى أمر واحد هو: نعم إن الإسلام يوجهنا إلى نفع أنفسنا، ولكن بأى مفهوم للمنفعة؟ إنها المنفعة التى يحددها لنا الإسلام، فالنافع هو ما يحدد الإسلام أنه نافع، وليس ما يحدده أى تصور أو مذهب آخر.

فالشىء النافع للإنسان فى الإسلام يكون محددًا بانطلاقه من التصور الإسلامى للوجود، ومن الشرائع والقواعد التى وضعها الإسلام لاستخلاف الله الإنسان فى الأرض، وإعلاء عبوديته فيها والتى تعمل على تنظيم المنافع والمصالح بين البشر.

وهذا فليست المنفعة فى الإسلام يترك تحديدها لمذهب أو هيئة أو سلطة أو لسراى أى شخص من الأشخاص مهما كانت درجته من العلم أو الفكر، كما أنه لا يترك تحديدها لكل إنسان على حدة كما يتهاى لهواه فيترك الحبل على غاربه للصراعات والانتهازيات.

فالحق فى الإسلام هو الذى يحدد المنفعة، والسعى إلى الحق هو غاية النفع ذاته، تتحدد على أساسه باقى المنافع.

تدمير الإنسان

لقد حطم البرجماتيون كل أحلام الشباب وكل آمالهم بل وأبسط حقوقهم الشرعية، وأحالوها إلى صراخ داخلي يظل يستنزف إرادة الإنسان وكبريائه حتى يسلبه صموده ليقف في النهاية يراقبهم في استسلام كامل بلا حياة، بينما هم يستهلكون حياة البشر أمثاله ويصير أقصى أمل له هو أن يقبلوه بمجرد أداة بسيطة يضعونها حيث يشاءون، قد تكون هذه الأداة هي مجرد وقود لتشغيل ماكينات مصانعهم التي تنتج التفاهات، أو قد تكون مجرد حلقة صغيرة في سلسلة أنشطتهم غير الشرعية التي تمتص دماء الملايين أمثاله، أو قد تكون مجرد حافز منشط على الاستمتاع والتسلية.

إن الأمر يبدأ برغبة مشروعة جداً فيحدث الصدام فيحدث العجز فيحدث الإحباط فتحدث الكآبة فيحدث الركود المدمر لنفسية الشاب وبنيته الداخلية.

وكيف يكون موقف الإنسان عندما يرى أن كل هذه الأوضاع برغم بشاعتها هي التي تسود وأن كل النوايا النبيلة لا تكاد تصنع شيئاً، وكيف لا يقف الضعفاء موقف العجز والاستسلام وهم يرون المبادئ والمثل والقيم العليا تُهْرَسُ تحت عجالات النفعيين المادية التي تهزأ بالشرف والعقيدة، ويرون النافع المتمثل في المال والثروة هو السيد القادر المُطَاع الذي له الرهبة والصولة والجاه والسلطان، واحترام الناس وتوقيرهم وتقديرهم واتباعهم، بل وتقديسهم، وله الحكمة القادرة على تنفيذ ما تقول، وعلى النقيض من ذلك يرون الشرفاء يتأكلون تحت وطأة الفقر والقهر واحتقار الناس لهم.

وكيف لا يقف الضعفاء موقف العجز وهم الذين لم يتحصنوا في يوم من الأيام بالعقيدة الراسخة والدين المتين والرؤية الإسلامية القوية لحقائق الوجود، والاستعلاء على الماديات التافهة الفانية، والشوق والحنين إلى الخلود.

كيف لا يقف الضعفاء موقف العجز وقد غُيِبَ دينهم على امتداد عقود طويلة ولم يبق منه

إلا هامش سطحي مزيف لا يستطيع الصمود أمام قوى المفاهيم البرجماتية الزاحفة المنتصرة.
وكيف لا يقف الضعفاء موقف العجز وهم الذين كانوا ضحايا مطامع البرجماتيين
الاستهلاكية البشعة للبشر، وعجز كل المقولات المثالية غير الواقعية عن استنقاذهم من بين
برائن هولاء البرجماتيين.

إنك حتى لو حاولت أن تثبت لهؤلاء صحة مفاهيم أخرى تختلف عن المفاهيم البرجماتية
(أى: النفعية) فلا بد أن تثبت لهم قدرة هذه المفاهيم على قهر المفاهيم البرجماتية عملياً،
وأن تثبت لهم جدواها المادية بالمقارنة بجدوى المفاهيم البرجماتية المادية، أى: إذا أردت أن
تدعو هولاء إلى مفاهيم صحيحة، فلا بد أن تثبت لهم أن هذه المفاهيم نافعة بالمفهوم
المادى للمنفعة، أى: أن هولاء الضعفاء العاجزين هم أنفسهم قد تشكلت عقولهم بطريقة
برجماتية (نفعية) وترسخت في نفوسهم نفس المفاهيم النفعية المسلخنة عن كل المبادئ
والقيم الإنسانية.

لقد أدت البرجماتية إلى انسلاخ الإنسان من كينونته الإنسانية وتفريغه من الحس
والشعور والعواطف وكل ما يتعلق بكيانه كإنسان ويميزه عن الحيوان أو الجماد، ثم تحولته
إلى مجرد ترس جامد الشعور في ميكنة الحياة العصرية التي صممها البرجماتيون.

والنتيجة أن كل الأشياء تقع الآن، حتى الإنسان فإن أجزاءه تتساقط جزءاً جزءاً والجزء
الباقى يتجمد، يُفَرِّغُ من المشاعر والأحاسيس، يُفَرِّغُ من كينونته كإنسان، ويصبح خامسة
صالحة للغاية للصب في القوالب الجاهزة التي يصممها النفعيون كآلات صغيرة في ماكينات
الحياة النفعية.

قد لا يكون الإنسان في الأصل مادياً ولكنه قد يسقط فريسة في أنياب الماديين السقي لا
ترحم، وعندما يجد نفسه كذلك.. عندما يجد الآخرين لا ينظرون إليه إلا على أنه سلعة،
ويُلْقَى كل شعور أو أحاسيس لديه في محرقة أطماع الآخرين فيه.. عند ذلك ما الذى من
الممكن أن يعنيه لديه أى شىء من القيم إذا كانت حقيقة ذاته نفسها أُخْتزِلَتْ إلى قيمة
مادية؟ فهل هناك شىء في العالم يمثل لديه أية قيمة بعدها؟

نعم لن تبقى لديه قيمة لشيء في الوجود إلا القيمة المادية، ليس هذا بناءً على طمع لديه
ولكنه يمثل لديه حقيقة واقعية منطقية فرضتها عليه تجربته القاسية.. إذن فلا غرابة عند

ذلك إذا صارت الضحية ذئبًا، تُعامل الآخرين بنفس المنطق المادى الذى فرض عليها.

أنا لا ألتمس هنا للضحية عذرًا فـ (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) (المائدة: ٣٨)، ولا عذر لأحد غير علم الإرادة، ولكن ألتمس تفسيرًا لما يحدث، ولكى يكتمل هذا التفسير أقول: إن هذا الانسلاخ الذى حدث للضحية حتى تصير ذئبًا لا يكون إلا بالنسبة للأشخاص الضعيفة المستسلمة التى إذا دفعتها الظروف إلى الانزلاق فى هاوية فإنها تستسلم لها تمامًا دون أن تحاول مقاومة هذا الانزلاق والوقوف بكل استماتة عند نقطة معينة فيها، أو تحاول أن تبدأ منها الخروج من تلك الورطة التى دفعتها الظروف إليها.. أقول: تستسلم لها تمامًا حتى تصل إلى القاع الحتمى فى النهاية.. قاع الانسلاخ من عالم القيم إلى عالم المادة والأرقام بكل قسوته وصرامته وجفائه البشع.

أى أن الذى أريد أن أقوله هنا: إن جريمة الإنسان الأساسية - الذى سقط فريسة للآخرين- ليس فى كونه قد تحول إلى ذئب، ولكن جريمته الأساسية فى ضعفه واستسلامه للآخرين يفعلون به ما يشاءون ويختزلون عقله ووجوده إلى وعى معين يخدم أهدافهم.

وهل الضعف والاستسلام جريمة؟

هل الضعف والاستسلام شيئًا إراديًا نحاسب عليه؟

أقول: نعم...

الضعف والاستسلام جريمة يجب أن نحاسبَ عليها؛ لأن الضعف والاستسلام يعبران عن الخواء الداخلى للإنسان، يعبران عن فقدان الإنسان لركائز القوة الحقيقية وتهاونه فى عدم العمل على إقامة دعائمها فى نفسه.

وما هذه الركائز إلا ركائز الإيمان، أى: أن ضعف الإنسان الشخصى هو تجسيد لحقيقة ضعف إيمانه الداخلى، فإذا استسلم الإنسان للأمور، وإذا تمادى فى سقوطه إلى النهاية حتى ولو كانت الظروف قد أرغمته على السقوط فى بداية الأمر فإن ذلك دليل على ضعف إيمانه؛ ولذلك فهو مسئول عن ذلك الضعف والاستسلام والتماهى فى السقوط.

قالت فتاة أمامى:

لا أعرف إذا لبست فستانًا جميلًا فما قيمة كل الفساتين الأخرى كى أضعف أمامها، لا

أعرف إذا كنت قد أكلت طعامًا شهياً فما قيمة كل طعام العالم بعد ذلك كي أضعف أمامه.
إن ما قاله صادق تمامًا، ويمكن أن يقاس عليه كل الأمثلة الأخرى التي تشببه.
فإذا كنت أسكن بيتًا كريمًا فما قيمة كل قصور العالم كي أضحي بذاتي من أجلها؟!...
وإذا كنت أركب سيارة جيدة فما قيمة أفخم ناقلات العالم كي أضحي بذاتي من
أجلها؟!...
وهكذا.. وهكذا...

نعم، إن هذا الموقف صادق تمامًا وحقيقي إلى أقصى حد، ولكن هذا الموقف يتناول
مستوى معين للقضية المطروحة دون المستويات الأخرى، إنه يتناول موضوع الإغراء المادي
من حيث كونه متعة يتمتع بها الإنسان، ولكن هناك مستوى آخر للقضية أخطر كثيرًا من هذا
المستوى يتعلق بما تمثله هذه المادة من عون على الاستعلاء.. على الاستكبار في الأرض وذلك
لقدرتها الخارقة في التأثير على الآخرين خصوصًا عندما تمثل ترمومترًا اجتماعيًا لتقدير قيمة
الإنسان في مجتمعات مثل مجتمعاتنا الساقطة في هوة سيادة المفاهيم النفعية (البرجماتية).
أقول: عند هذا المستوى الخطير يكون ابتغاء المال ليس في الحقيقة ابتغاءً للمتعة في
الأساس، ولكن ابتغاءً للعلو في الأرض، ابتغاءً لإرضاء رغبة الإنسان في العلو والسيادة على
الآخرين، ابتغاءً في امتلاك مسوغات التكبر في الأرض.

هذه هي حقيقة القضية التي يضحى الإنسان بذاته من أجلها.
ما هذا المنطق؟!

أيضحي الإنسان بذاته من أجل إرضاء ذاته في التكبر؟!

أقول: ليس هناك تناقض في ذلك: هو يضحى بما هو حقيقي وِسَامٌ ورباني في ذاته من
أجل ما هو أناني وشيطاني فيها وهو رغبته في التكبر والاستعلاء على الآخرين.
نعم إنه...

الجرمة الأولى والكبرى في هذا الوجود جرمة الشيطان حين قال: ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ
وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (الأعراف: ١٢) تلك الجرمة التي لم يعد أحد يتعرض لها- في غير
النادر- إلا كموضوع تقليدي لا يحتاج إلى عظيم اهتمام أو شرح.

ما هي الشخصية القوية

نستطيع الآن أن نتحدث عن مفهوم الشخصية القوية في الإسلام ومن ثمَّ عن وسائلنا في صنعها واقعياً.

ولكن قبل أن نتطرق إلى ذلك لا بد أن نتحدث عن مفهوم الشخصية القوية بوجهه عام، وسوف نحتكم في ذلك (وهو ما سنفعله في كثير من الأمور التي تثير جدلاً كبيراً في عالم النفس) إلى خبرات القارئ الواقعية.

ما هي الشخصية القوية؟

هل هي الشخصية التي تربح دائماً؟

هل هي الشخصية التي تصل إلى ما تريد بشق الوسائل؟

هل هي الشخصية التي تميل إلى الخير؟

هل هي الشخصية التي تميل إلى الشر؟

هل هي الشخصية التي تقود؟

هل هي الشخصية التي تصر على ما تريد مهما كانت الخسائر؟

هل هي الشخصية العنيفة؟

هل هي الشخصية الهادئة؟

نستطيع أن نثبت - لو أردنا الإطناب - من خلال تجاربنا الواقعية أن أي سمة من السمات السابقة لا نستطيع أن نحدد لنا ما هي الشخصية القوية.

ولكن هناك أمر أساس يستطيع أن يحدد لنا الشخصية القوية، وهو القدرة على اتخاذ القرار؛ لأن هذا يعني قدرة النفس على التحكم في اتخاذ قراراتها، أي: سيطرتها الدائمة على توجيه سلوكها إلى ما تريد تحقيقه دون أن يرتبط ذلك بتحقيق المكاسب أو الخسائر.

قد يخسر الإنسان أشياء نتيجة اتخاذ لموقف معين، ولكن مع ذلك تكون مكاسبه أكبر، وهي تتمثل في تدعيم قوة تحكمه في اتخاذ قراره.

ونحن نخصص في هذا الكتاب فصلاً كاملاً عن مدى الأهمية العظمى لحرية الإرادة في الإسلام، ويحضرنا الآن تلك المقولة التي تنسب للسيد المسيح عليه السلام: "ماذا لو كسب الإنسان العالم وخسر نفسه؟".

ابنان لرجل ثرى، هذا يتحكم والده في توجيه مسار حياته تماماً ويغدق عليه الأموال في مقابل ذلك، وهذا اختار أن يملك زمام نفسه في توجيه مسار حياته، حتى ولو أدى ذلك إلى ألا ينال من ثروة أبيه إلا الفتات. أيهما الأقوى شخصية؟!.

هذه فتاة قذفت بها أمها في بوتقة رجل ثرى لا تخلق له، وآثرت السلامة كي تنجو من بطش أمها بها وتعريضها لما يجرح شخصيتها، وعاشت في ترف من النعيم ورغد العيش دون أن يفترق وجودها عن وجود أى قطعة أثاث من أملاك هذا الرجل الثرى، وهذه أخرى اختارت ألا تتزوج إلا من تريد، وارتضت في سبيل ذلك أن تجذب من رأسها وتسجل على الأرض، أيهما الأقوى شخصية؟! هل التي حافظت على (برستيجهها) وضحت بحرية إرادتها، ومن ثم خسرت حياتها؟! أم التي تشبث بحرية إرادتها، وارتضت في سبيل ذلك التضحية (برستيجهها) وتحمل آلام المهانة والضرب؟!.

لا شك أن الشخصية الأقوى هي الشخصية التي حافظت على حرية قرارها.

والخلاصة من كل ما سبق أن المفهوم العام للشخصية القوية أنها الشخصية التي تتحكم في اتخاذ قرارها أيًا كان اتجاهه.

وعلى ذلك فقد تكون هذه الشخصية خيرة إذا كان اتجاه قراراتها يتجه عادة نحو الخير، أو شريرة إذا كان اتجاه قراراتها يتجه عادة نحو الشر.

ولكننا لا بد أن نضع معياراً معيناً للشخصية القوية التي تنطلق من التصور الإسلامى.

قلنا فيما سبق: إن وجود قيم خيرية شديدة القوة والثبات داخل النفس الإنسانية يجعل تحكم النفس في رغباتها شديد القوة، فلو أضفنا إلى ذلك أن تثبيت الإنسان بالحفاظ على علسي حرته في اتخاذ قراراته يمثل بذاته قيمة خيرية عظيمة من المنظور الإسلامى لانتبهنا إلى النتيجة الآتية:

أن الشخصية القوية من المنظور الإسلامي هي الشخصية التي تملك القدرة على التحكم في اتخاذ قراراتها، والحفاظ على حرية إرادتها، وهي لمن تملك هذه القدرة إلا إذا كانت تمتلك القدرة على التضحية برغباتها المادية والاستعلائية، وتحتوي داخلها على قيم خيريّة شديدة القوة والثبات.

وعلى ذلك يكون منهاجنا في بناء هذه الشخصية يقوم على تدعيم مبدأ حرية الإرادة^(١) كقيمة إسلامية عظيمة، وباعتبارها الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان. فكيف يهون لديه التفريط فيها؟!!!!
وعلى تقوية النفس الإنسانية بثبيت أكبر قدر من القيم الخيريّة التي تنطلق من المنظور الإسلامي داخلها.

وعمليّة البناء هذه ليست بالأمر السهل أو الهين، وإنما هي تتم بإعداد طويل وجهاد طويل على حمل القيم الإيمانية، ومواجهة الواقع بها، بل وعلى العمل على التحكم فيه وتوجيهه.

وسوف نتناول الكثير من المواد التي تدخل في عمليّة البناء هذه في الفصول القادمة بإذن الله.

(١) راجع فصلى حرية الإرادة والقضاء والقدر في هذا الكتاب.

أولاً: حرية الإرادة

١- التفريط في حرية الإرادة

خيانة للأمانة التي حملها الله للإنسان

التفريط في الإرادة خيانة لله ﷻ

يقول الله ﷻ في كتابه العزيز:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) (الأحزاب: ٧٢).

ما هي أقوال المفسرين في تفسير هذه الآية؟

عند الدكتور الحمصي (مفردات القرآن تفسير وبيان):

العقل للمفكر وحرية الإرادة.

وفي تفسير الإمام البيضاوي: "ولما خلق الله هذه الأجرام قال لها إني فرضت فريضة وخلقت جنة لمن أطاعني فيها ونارا لمن عصاني، فقلن: نحن مسخرات على ما خلقتنا لا نحتمل فريضة ولا نبغي ثوابا ولا عقابا، ولما خلق آدم عرض عليه مثل ذلك فحملة، فكان ظلوماً لنفسه بتحملة ما يشق عليها، جهولاً بوخامة عاقبته، ولعل المراد بالأمانة العقل والتكليف".

وفي تفسير الإمام ابن كثير:

"قال ابن عباس: يعني بالأمانة الطاعة، عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها، فقال لآدم: إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذها بما فيها؟ قال: يا رب وما فيها؟ قال إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت فأخذها آدم فحملها".

وبعدما عرض الإمام ابن كثير عدة أقوال لمجاهد والضحاك والبصري وأبي بن كعب وقتادة وزيد ابن أسلم مثل كونها الفرائض والحدود قال: "وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر".

وفي المصحف الميسر (تفسير الشيخ عبد الجليل عيسى):

"الأمانة المراد بها هنا: الصفات التي ميز الله بها الإنسان عن غيره وكانت منشأ تكليفه بالطاعات لتمييز من يشكره عليها فلا يستعملها إلا فيما يرضى الله، وهذه الصفات هي مجموع العقل المفكر، المستتج وحرية الإرادة" أ.هـ.

والذي نستخلصه من كل هذه الأقوال أن مناط التكليف هو كل القوى المفكرة لدى الإنسان، والتي تميزها عن غيره من المخلوقات، ولكن أين يتحدد أساساً مناط المسؤولية على هذا التكليف بين هذه القوى.

إنه يتحدد أساساً في الإرادة، فحرية الإرادة لدى الإنسان هي مناط مسعوليته أمام الله رب العالمين.

إذن فحرية الإرادة هي المحور الجوهرى في الأمانة، الذي من أجله أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها، إنما أخطر شيء في هذا الوجود يحمله الإنسان، إنها الشيء الذي على أساسه انتظمت مسيرة الوجود من حياة لموت لحياة لثواب وعقاب وجنة ونار فكيف يفرض الإنسان في هذا الشيء؟

كيف يفرض الإنسان في حرية إرادته؟ ما الذي يجعله يساق كالشيء للذبح أو حتى للكلاؤ الوفير؟..

كيف يرتضى الإنسان التفريط في إرادته؟ وهل هناك شيء في الوجود يستحق أن يفعل ذلك من أجله؟..

من أجل ماذا؟ من أجل من؟

نعم الصالحون يشترون آخرتهم بديناهم والطالحون يشترون دنياهم بآخرتهم.

أما المساقون التبعاء الذين يفرطون في إرادتهم فإنهم يُهدرون دينهم ودنياهم معاً بماذا؟

بالاشياء!!!...

وفي هذا قال القدماء: أكثر الناس غرماً من يبيع أخراه بدنيا غيره، والذين فرطوا في إرادتهم وانساقوا وراء غيرهم فقد أضاعوا آخرتهم ولم يصيبوا دنياهم، وإنما الذي أصابها هم هؤلاء الذين انساقوا وراءهم.

هل يكون هذا حقيقةً الذي يبرر به البعض موقفهم أنهم يضحون بإرادتهم من أجل

إنقاذ الآخرين؟

فإذا كانت حرية الإرادة هي المحور الجوهرى فى الأمانة التى حملها الله للإنسان أفلا يكون المفرد فى إرادته خائناً لله ﷻ؟! وأى ضلال هذا؟! ۱۱

هل من الممكن أن يكون الضلال سبيلاً لإنقاذ الآخرين؟! ۱۲

إن الله لم يطلب أبداً من الإنسان التفريط فى إرادته فى سبيل أى شىء فى هذا الوجود، إنما الأمانة التى حملها على أساسها مسؤوليته فى الحياة الدنيا، فهل من الممكن أن تكون هناك مثالية تغضب الله وترتضى طريق الشيطان؟! أم أن ذلك مجرد ادعاء يدعيه الضعفاء لتبرير ضعفهم.

وما تلك المكاسب التى من الممكن أن أسديها للآخرين والتى يمكنها أن تكافئ تلك الخسائر التى تصيبهم بتقدمى القدوة لهم فى خيانة أمانة الله بتفريطى فى حرية إرادتى؟! ۱۳

ما المكاسب التى من الممكن أن أسديها للآخرين والتى من الممكن أن تكافئ تقدم نفسى لهم كنموذج رائع للشخصية الضعيفة السلبية عديمة الإرادة.

أيها الإنسان يا سيد المخلوقات:

لقد حملك الله الأمانة التى أبت أن تحملها السموات والأرض والجبال وأشفقن منها وارتضيت حملها، فإذا أردت أن تخسر دنياك وأخترتك من أجل دنيا يصيبها الطواغيت الذين ترهبهم وتتخاذل أمامهم ففرط فى إرادتك ثم لا تلومن إلا نفسك.

٢- القضاء والقدر وحرية الإرادة

القضاء والقدر وحرية الإرادة

الإيمان بالقضاء والقدر في الإسلام هل هو مصدر قوة أم مصدر ضعف؟
الحقيقة التي لا شك فيها أن الإيمان بالقضاء والقدر في الإسلام هو مَعِينٌ لا ينضب
لاكتساب الإنسان القوة الفولاذية التي يستطيع بها مواجهة الدنيا وما فيها من المصائب
والشدائد والابتلاءات، ومع ذلك فقد اختزلته المفاهيم المشاعة المتوارثة والدخيلة المسأخوذة
عن العقائد والفلسفات الاتكالية القديمة إلى مجموعة من المفاهيم التي تنحى بالإنسان إلى
السكون والضعف والدَّعَّةِ والاتكالية والسلبية والرضوخ للأمر الواقع بدلاً من أن تدفعه إلى
العمل والقوة والتحدى والتصميم والمواجهة كما هي حقيقة الإيمان الصحيح بهذه العقيدة
في الإسلام.

علم الله ومصير الإنسان

ولنبداً هذه القضية:

يقولون إنه إذا كان الله جل وعلا هو علام الغيوب، وإذا كانت مصائرنا وأعمالنا مكتوبة لديه، وعلم الله ﷻ يجعل عن الخطأ، وما دام مكتوباً فلا بد أن ينفذ. فما فائدة العمل إذن؟ وما فائدة الأخذ بالأسباب أو السعى إلى الأهداف أو اتخاذ المحاذير ما دام لن ينفذ في النهاية إلا ما كتبه الله علينا؟

تقول: إن البعض يهوى الاعتقاد بهذا التلبس الشيطاني ليبرر سلبته واتكاليته؛ لأن قضية علم الله بما يحدث أو نفعل ليس لها علاقة بالتدخل في توجيه أفعالنا أو إحباط إرادتنا. والمثل الذي يُضربُ على ذلك شديد الوضوح - والله المثل الأعلى: هب أنك تقوم بالتدريس لبعض الطلبة فمن الطبيعي أن خبرتك الطويلة في التدريس معهم ومع غيرهم تجعلك إلى حدٍ كبير تستطيع أن تتوقع الدرجات التي سوف يمكنهم الحصول عليها عند دخولهم الامتحان.

هب أن صديقاً لك تحدّك في ذلك فسجّلت له توقعاتك تلك في ورقة مكتوبة وجاءت النتائج إلى حد كبير مقاربة إلى هذه التوقعات.

فهل أنت تدخلت بما فعلته في سلوك أي منهم عند أدائه للامتحان؟ هل يستطيع أحدهم أن يتحجج بك ويقول إن توقعات الأستاذ هي التي حدّدت لنا النتيجة ونحن لا إرادة لنا في ذلك؟! طبعاً لا يستطيع.

هذا مع الفارق العظيم أنك سجّلت توقعاتك بعلمك المحدود، ولذلك فسوف تتطابق مع النتائج بشكل متقارب، أمّا علم الله اللامحدود الذي لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء فلن يحدث في الدنيا شيء يخالفه، فهذا أمر لا يجوز في حق الله المتصف بالكمال ﷻ.

مشيئة الله ومشيئة الإنسان

إن تساؤل الإنسان حول مدى حرته في هذا العالم ومدى ما يتمتع به من قدرة وحرية اختيار أمام القضاء والقدر يجعله يطرح دائماً هذا السؤال المصيري:

ما هي المشيئة التي تقرر السلوك الإنساني: هل المشيئة الإلهية هي التي تقرر هذا السلوك الإنساني بشكل حتمي ومن هنا تنتفي الإرادة الإنسانية وتندم الحكمة من التكليف والثواب والعقاب؟ أم أن مشيئة الإنسان لها الحرية المطلقة في هذا الوجود ومن ثم يثور التساؤل عن معنى المشيئة الإلهية؟

في الحقيقة فإن الآيات التي وردت في القرآن الكريم قد قررت المشيئة الإنسانية للإنسان في تقرير أفعاله في نفس الوقت الذي ربطت فيه هذه المشيئة بالمشيئة الإلهية، كما جاء في قوله تعالى:

(كَلَّا إِنَّهُ تَذَكِّرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْغَفِرَةِ) (المدثر: ٥٤ - ٥٦).

وقوله تعالى:

(إِنَّ هَذِهِ تَذَكِّرَةٌ ﴿٢٩﴾ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٣٠﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) (الإنسان: ٢٩ - ٣٠).

فهذه الآيات تقرر الحقيقتين التاليتين:

١- إن كل عبد مرهون اختياره لأفعاله بمشيئته، وعلى ذلك يكون ترتيب مسؤوليته عن ذلك الاختيار هو تحقيق لعدل الله ﷻ.

٢- إن هذه المشيئة التي يشاءها الإنسان مشروط تحقيقها قبل كل شيء بتحقيق المشيئة الإلهية أولاً، أي: أن المشيئة الإنسانية لا تستطيع أن تتحرك إلا إذا منحتها المشيئة الإلهية هذا الحق في التحرك، أي: أن المشيئة الإنسانية تتحرك في النطاق الذي تمنحه لها المشيئة

الإلهية، ويمكن تفسير ذلك كالتالي:

إنه قبل أن يُصدِرَ الفعل أو يُحدِّدَ الإنسان السلوك الذي يختاره فإنه يسبق ذلك أولاً الإرادة الإلهية.

فالإرادة الإلهية هي التي تمنح الإنسان إمكانية صدور الفعل، ومعنى إمكانية صدور الفعل هو أن يهيئ الله للإنسان الظروف والوسائل التامة التي يمكنه من خلالها إصدار الفعل أو عدم إصداره.

فإرادة الله هي التي تمهي للإنسان هذه الإمكانية، فلا يستطيع الإنسان أن يُصدِرَ أى فعل إلا إذا ملك هذه الإمكانية، وعلى ذلك فإن الله إذا هيا للإنسان هذه الإمكانية فإن أى فعل يُصدِرُهُ يكون ناتجاً عن الإرادة الإلهية أولاً أياً كان هذا الفعل خيراً أم شراً؛ لأنه لو لم يكن الله قد شاء منح الإنسان هذه الإمكانية ما كان يستطيع أن يُصدِرَ أى فعل، وبذلك لا يكون أى فعل يُصدِرُهُ الإنسان إلا ناتجاً عن هذه الإرادة الإلهية ولا يستطيع أن يخرج عنها.

ويقول آخر: فلو لم يشأ الله أن يمنح الإنسان هذه الإمكانية لصدور الفعل ما كان ليملك أن يُصدِرَ أى فعل حيث لا يكون هناك مجال أصلاً لذلك.

وعلى هذا لا يكون أى فعل يُصدِرُهُ الإنسان إلا بإرادة الله ومشيته أولاً ثم تأتي بعد ذلك إرادة الإنسان ومشيته.

وهذه الإمكانية من الظروف والوسائل التي يمنحها الله للإنسان أمام أمر معين لا تُحتَمُّ على الإنسان إصدار أى فعل معين أو أى سلوك خاص من خير أو شر.

بل يكون أمامه بعد أن ملك هذه الإمكانية أن يُصدِرَ أى فعل في أى اتجاه، وبذلك فهو يملك الإرادة التامة في أن يختار السلوك الذي يريده والفعل الذي يشاءه؛ لأن هذه الإمكانية التي وهبها الله إياها لا تدخل في اختياره لهذا الفعل أو ذاك.

ويكون الإنسان بذلك حراً مختاراً في صدور أفعاله، ومن ثم تترتب مسؤوليته عن صدور هذه الأفعال، ويكون حساب الله له على ذلك هو العدل المطلق الذي وصف الله به ذاته جلتُ حكمته وقدرته.

ولتوضيح ما سبق نضرب المثل التالي:

فلنفترض أن هناك أحد الأشخاص أمام اختبار للزنا، فلكي يكون هذا الشخص أمام

اختبار حقيقي للزنا فلا بد أن تتوافر له إمكانية تحقيق الفعل أصلاً حتى يكون هناك مجال لاختيار الزنا أو عدم اختياره.

فهناك المرأة المُعْرِية اللُّعوب، والاختفاء عن عيون الناس، والبعد عن العواقب، وتوافر القدرة الجنسية لفعل ذلك، وغير هذا من الظروف التي تدخل في إطار هذه الإمكانية.

فإذا لم يمنح الله الشخص هذه الإمكانية ما كان يمكنه أن يختار أن يفعل الزنا أو لا يفعل، وإذا منحه الله هذه الإمكانية فإن أى فعل يُصْدِرُهُ من الزنا أو الابتعاد عن الزنا ما كان ليكون إلا بعد أن توافرت الإرادة الإلهية أولاً، أى: أنه لم يكن يملك هذه المشيئة إلا بعد أن يشاء الله ذلك أولاً. ثم يأتي دور الإنسان بعد أن مَلَكَهُ اللهُ هذه الإمكانية.

ولا يعني مجرد مُلْك الإنسان لهذه الإمكانية أنه قد أُجْبِرَ على الزنا ولكنه مُنِحَ القدرة فقط على اختيار الزنا أو عدم الزنا، ولا تزال له الحرية التامة في هذا الاختيار، فإذا زنى كان ذلك نتيجة لاختياره وإرادته دون أن يجبره أحد على ذلك، وإذا لم يزن كان ذلك نتيجة لاختياره وإرادته أيضاً ودون أن يجبره أحد على ذلك، وهو في كلتا الحالتين ما كان ليستطيع أن يقرر اختياره لو لم يكن اللهُ ﷻ قد شاء له ذلك أولاً.

القدر أو النصيب بين ما تمّ فعلاً وما سيتم

يقول الإمام الشافعي في كتابه المأثور عن التوحيد (الفقه الأكبر):
"اعلموا أن ما شاء الله (كونه) لا محالة (يكون) وما شاء الله أن (لا يكون) فمحال
(كونه) ولا يجوز أن يجرى إلا ما يريد".
ثم يذكر من الأدلة على ذلك: "أطباق المسلمين على القول بأن (ما شاء الله كان وما لم
يشأ لم يكن". أ.هـ.

ولقد بنيت على هذه المقولة التي ذكرها الإمام الشافعي مقولة أخرى ترسخت في وعينا
الاجتماعي وهي: كل شيء نصيب وكذلك كل شيء بيد الله.
ولقد كان لمثل هذه المقولات الأثر الخطير في سلوك المسلمين.

ولا أحد يستطيع أن يشكك في صحة هذه المقولات من المنظور الإسلامي ولكن
المشكلة في المعنى الذي استخلصه الكثيرون منها وجعلوا منه مسوغاً لتبرير اتكالاتهم
وسلباتهم وسلوكهم الاستسلامي، وهذا المعنى الذي استخلصوه هو: أنه ما دام كل شيء
نصيب وكل شيء بيد الله فلا مجال لمشية الإنسان وإرادته أمام الأحداث، وليس على
الإنسان إلا أن يستسلم لما تدفعه إليه الظروف المحيطة به؛ لأن ذلك قدره ونصيبه، بل وقد
يمضي الأمر إلى اعتبار محاولته للخروج من تلك الظروف هو تحدّي لإرادة الله ﷻ.

ونحن نعلم طبعاً أن كل شيء بيد الله، وأن كل شيء نصيب، ونؤمن بذلك أشد
الإيمان، ولكن تعالوا بنا نتساءل: ما هذا الشيء الذي نعتبره نصيباً يجب الاستسلام له؟ هل
هو الشيء الذي تم بالفعل؟ أم الشيء الذي لم يتم؟.

من الطبيعي أننا عندما نكون أمام أحداث ما في حركة حياتنا فإننا لا نستطيع أن نتكلم

إلا عن الشيء الذي تم بالفعل؛ لأنه الشيء الذي تحدد، ومن ثم جاز لنا القول بأن النصيب فقد فعل كذا، أما الشيء الذي لم يتم بالفعل فإننا لا يجوز لنا أن نحده ونسميه نصيباً؛ لأنه لم يتحدد بعد، ولا يستطيع أحد منا أن يدعى علمه بما تريده المشيئة الإلهية، ومن ثم فقد يتوقع البعض حدوث أمر ما ويطلقون عليه لفظ نصيب ويتركون أنفسهم للاستسلام له، ثم تكون النتيجة حدوث أمر آخر غير الذي يتوقعونه، ومن هنا يبرز الخطأ الفاحش في اعتبار ما هو متوقع ولكن لم يتم بالفعل على أنه قدر (نصيب)؛ لأن ذلك أمر في علم الله ولا يستطيع أحد إدراك ما ستوقعه الإرادة الإلهية على وجه التحديد.

كل الأشياء قدر في الله (نصيب)، أما بذلك غاية الإيمان، ولكن النصيب المحدد هو النصيب الذي وقع بالفعل، أما النصيب الذي لم يتم وقوعه فهو نصيب لم يتحدد بعد، ولذلك فلا يجوز لأحد إعطائه وجهة معينة، ومطالبتنا بالاستسلام لها على أساس أن القدر على اليقين سيقدر هذه الوجهة.

قفوا عند هذه النقطة ورددوها كثيراً لأنها غاية في الأهمية:

وجود إسرائيل جائمة على أرواحنا في قلب العالم الإسلامي قدر ونصيب حتى ولو كان ذلك راجع إلى أخطائنا، ولكن مهما كانت قوة إسرائيل ومن يساندها فإن ذلك لا يعنى أن دخولنا معها في أى معركة جديدة سيكون نصيبنا فيها الهزيمة لا محالة!! من الذى قال هذا!! هل يستطيع أحد ادعاء إدراك ما تريده المشيئة الإلهية؟ هل من الممكن الاستناد في ذلك على مفهوم القضاء والقدر في الإسلام؟

فتاه تزوجت من أحد الأشخاص ثم اكتشفت بعد زواجها منه عيوباً جسيمة في شخصيته كافية لجعل حياتها معه جحيماً، هنا نقول: نعم إن زواجها منه نصيب تحدد، لكن من الذى قال إن استمرار حياتها معه نصيب تحدد يجب الاستسلام له!!؟.

فريق لكرة القدم أصيب في الشوط الأول من المباراة بثلاثة أهداف في مرماه، هنا نقول إن إصابته بهذه الأهداف الثلاثة في الشوط الأول نصيب قد تحدد، لكن من الذى قال إن هزيمته في المباراة كلها نصيب قد تحدد يجب الاستسلام له!!؟.

إن هذه الأمثلة توهنا لأن نشرح الموضوع شرحاً أكثر، وأن نتعرض لأمر فيه غاية في الخطورة والعمق.

لقد قلنا إن ما تم بالفعل نصيب تحدد، أمّا ما لم يتم فإنه نصيب لم يتحدد بعد، إذن فما دمنا لا ندرك ما الذى تريده المشيئة الإلهية فعلىنا أن نعمل جاهدين لتحقيق ما نريد تحقيقه، فقد يكون هو الذى ستقرره الإرادة الإلهية فى النهاية، ويكون ذلك الذى أردناه هو النصيب الذى تحدد بالفعل.

سيقال: إن الأمور التى لم تتحدد بعد لها ظواهر تغلب عليها يبدو منها الوجهة التى ستمضى إليها.

نقول: إن هذه الأمور التى تثير مثل هذه التساؤلات الكبرى فى حياتنا هى أمور أشبه بالمعارك، فإذا جاز لنا أن نصفها هذا الوصف نستطيع أن نقول إنه ما دامت أى معركة لم تنته بعد فلا يمكن التسليم بأنها ستذهب لوجهة ما نقف عندها مهما كانت الظواهر الدالة على ذلك؛ لأنه ما دامت المعركة لم تنته بعد فالفرصة ما زالت ممكنة للحركة.. للفعل.. لصنع ما هو من الممكن أن تقرره الإرادة الإلهية فى النهاية، وما دامت المعركة لم تنته بعد وما دمنا لا نستطيع إدراك ما الذى تريده الإرادة الإلهية فى النهاية فإن القدر (النصيب) لم يتحدد بعد، وما زالت الفرصة قائمة لكى يكون ما نريد تحقيقه هو النصيب الذى سيتحدد فى النهاية.

ولكن تعالوا لمسألة أخطر.. قلنا: إن ما تم بالفعل هو قدر (نصيب) تحدد، ولكن من الذى قال إنه قدر (نصيب) نهائى يجب الاستسلام له وإلا نكون بذلك قد اعترضنا على الإرادة الإلهية؟

إن ما تم بالفعل ما دامت هناك إمكانية لتغييره فإن محاولة تغييره بأيدينا هى قدر أيضاً، وما سيتم عن هذه المحاولة قدر (نصيب) أيضاً، فليس هناك ما يحتم علينا قبول ما تم، وليس هناك رادع يمنعنا من محاولة التغيير ما دمنا لا ندرك أن المشيئة الإلهية قد أرادت استمرار هذا الأمر أم أرادت تغييره وهو أمر لا يجوز لأحد ادعاء إدراكه.

إذن فما دامت هناك إمكانية لتغيير الأمر الذى تم بالفعل فلا يجوز لأحد ادعاء أن محاولة التغيير هذه تمثل اعتراضاً على الإرادة الإلهية.. هذا جهل وتخلف ورجعية وافتراء على الدين ما أنزل الله به من سلطان.

إن ما تم نصيب، ومحاولة التغيير ما دامت هناك إمكانية لذلك نصيب، وما سيتم بالفعل

نصيب أيضاً، وليس هناك أى حتمية توجب الاستسلام لما سيقع أو حتى لما وقع بالفعل ما دامت هناك إمكانية للتغيير؛ لأن هذه الإمكانية تنفى وجود القدر (النصيب) النهائي الذى يجب الاستسلام له، فهذا القدر النهائي الذى يجب الاستسلام له لا يكون موجوداً إلا فى حالة واحدة هى انتفاء وجود أى إمكانية لتغييره، عند ذلك فقط فإن عدم التسليم له يكون اعتراضاً على المشيئة الإلهية، وما علينا فى هذه الحالة سوى التسليم والرضا بما قسمه الله لنا.

**٣- حرية الإرادة
بين الإنسان المسيطر
والإنسان المسيطر عليه**

شخصية الإنسان بين السيطرة والتبعية

هناك طغاة يحكمون الأرض..

ليس على المستوى السياسى فقط وإنما على المستوى الاجتماعى أيضاً..

قلوب من الحجارة أو أشد قسوة..

قلوب يمتلكها الكبر والظلم والجبروت..

ومن هذا المعين الأسود تريد أن تنسج الحياة على أهوائها.

إن ما يريدونه فقط هو الحق والحقيقة وكل ما هو غير ذلك فلا شيء.

وكما أن هولاءكو ونابليون وهتلر لا يهمهم فى شىء سحق آلاف البشر واغتصاب

خيراتهم من أجل بناء مجدهم الشخصى.

فإن هولاء على المستوى الاجتماعى لا يهمهم فى شىء هرس عشرات النفوس

واغتصاب أعمارهم من أجل إرضاء ذاتهم.

وكالوحوش التى تمتص الدماء من عروق فرائسها الضعيفة فإن هولاء يمتصون السعادة

من عروق ضحاياهم ذوى النفوس الضعيفة.

لا العدل.. لا الرحمة.. لا الإحساس.. لا الشعور.. لا الحلال.. لا الحرام.. لا شىء فى

الوجود من مثل هذه الأشياء يمثل أى معنى لديهم، انظر إلى وجوده هولاء جيداً تراها

كصخر لا يلين.. إنهم قوم أرادوا منذ البدء أن ينازعوا الله فى ألوهيته، وكيف لا وأهم ما

يميزهم الأنانية التى لا حدود لها والشعور الدائم بجنون العظمة.

ولن ندرك أن هذا النوع من البشر ضمن تلك الأنواع من الأنماط البشرية التى يوصف

أصحابها بالسيكوباتية "حيث يتميز الشخص السيكوباتى بالأنانية، وعدم مراعاة شعور

الغير، أو حرمة ممتلكاتهم وحقوقهم، وعدم تأنيب الضمير أو الشعور بالذنب، وتعوزه

القدرة على الحب أو التعلق بأى شيء أو أى أحد، وقد يضحى بأقرب صديق أو أقرب قريب له فى سبيل منفعة ذاتية، وبالرغم من قدرته على التعبير عن انفعالاته وعواطفه فهو نادراً ما يكون صادقاً فيها"^(١).

ولذلك فهذا النوع من البشر بالذات يكون فى الدرك الأسفل من النار يوم القيامة. والمشكلة ليست فى هؤلاء..

إنما المشكلة فى من ينشئون أو يسقطون فى محرقة سيظرتهم.

والحقيقة الواقعة التى يجب أن نواجهها هى أن هذا الشخص المستبد يمثل بالنسبة لمن ينشئون أو يسقطون فى محرقة سيظرتهم واستبداده الطاغوت الذى أمرنا الله بالكفر به.

وكيف لا يكون كذلك.. إذا كان هو الذى يحدد لهم الحق والباطل، والخير والشر، والحلال والحرام، والنجاح والفشل، والصواب والخطأ، والعيب واللاعيب.. وهى الأمور التى لا يجوز أن تستمد إلا من المصادر الإلهية.

ولا بد أن يخرج الإنسان من سيطرة هذا الطاغوت أو بقول أقرب إلى الحقيقة لا بد أن يخرج من ظلمات عبوديته إلى نور الإيمان بالله وحده ﷻ.

ولا طريق إلى ذلك إلا بالاستناد على ركائز القوى المستمدة من الإيمان بالله ﷻ، لا بد من الاستعانة بالله والتوكل عليه؛ لأن من يستعين بالله ويتوكل عليه لا يستطيع أحد فى هذا الوجود هزيمته.

ولا بد من تحمل الخسائر.

فلا شيء ذا بال فى هذا الوجود يمكن تحقيقه بلا خسائر؛ لا بد من الخسائر.

لا بد من تحمل الخسائر مهما كان حجمها فى سبيل تحرير الإنسان من عبودية غيره.. وهل توجد خسائر فى العالم يمكن مقارنتها بخسائر الوقوع فى محرقة سيطرة شخص طاغ مستبد.

إن صورة بسيطة تستطيع أن تبيّن من خلالها حقيقة الفرق بين الأمرين أمامك.

قارن ولو للحظة واحدة من الحرية والوعى - إن كنت مازلت تملك هذه اللحظة - بين الحالة التى تقع فيها وبين الحالة التى يمكن أن تتصورها لو كنت أنت بالفعل - وليس

(١) المرجع فى علم النفس، د. سعد جلال، ص: ٨٠٨.

بالإيهام- تخرج عن سيطرة هذا الطاغوت وتقرر مصيرك ومواقفك في الحياة بيدك.
قارن بين السعادة التي كان يمكنك تحقيقها لو كانت قراراتك بيدك وبين التعاسة
الحقيقية أو السعادة الموهومة التي تعيش فيها وأنت ترزح تحت عبودية غيرك.
قارن بين هذا وذاك ليس بموازين الدنيا فقط وإنما بموازين الآخرة أيضًا.
قارن بين رضا هذا الطاغوت ورضا الله الذي لا يرضى أن يدين أحد لأحد بالعبودية
إلا له.

قارن بين غضب هذا الطاغوت وبين غضب الله الذي يغضب على كل من يجعلون له
أندادًا يحبونهم كحبه.

كيف تخسر دنياك وآخرتك لدنيا يصيبها غيرك!!؟

نعم.. دنيا يصيبها غيرك.

لأن السعادة التي تفتقدتها لوقوع قراراتك تحت سيطرة غيرك تصير مدادًا لتغذية هذا
الطاغوت وتقويته.

كيف تقبل هذا!!؟

وأي خسائر في هذا الوجود يمكنها أن تجبرك على الرضا بذلك؟

وأي خداع أو غواية أو سيطرة يمكنها أن تلهيك عن هذه الحقيقة المريعة؟

إننا إذا كنا نتحدث عن الشخصية الضعيفة والشخصية القوية فلا بد أن نقرر أن الذي
يقع تحت سيطرة غيره لا شخصية له على الإطلاق مهما أوهمه هذا الطاغوت بغير ذلك.

بعض أشكال سيطرة الأشخاص الطاغوتية

على الأشخاص المستضعفة

إن الصورة المبسطة لسيطرة الشخص الطاغوتي على الشخص المستضعف هي أن يأمر الأول فيطيع الثاني وبذلك لا تتشكل حياة الثاني إلا داخل نطاق دائرة الأول.

ولكن هناك العلاقة الأشد تعقيداً من هذه الصورة الساذجة.

إنها مزيج من فرض القوة والخداع معاً.

فلن يأمر الشخص الطاغوتي الشخص المستضعف بشيء ولكن سيجعله هو نفسه يحدد لنفسه ما يريد هو له.

ما معنى ذلك؟!.

إنه يضعه في دائرة حديدية من الضغوط ويفهمه ضمناً أنه لن يتوان لحظة واحدة عن تحطيمه إذا تحدى هذه الضغوط وحاول الخروج من دائرتها، ومن ناحية أخرى يعمل على إغرائه بأنه سيكون صاحب الحظوة والمكانة لديه دون الآخرين إذا حدد أهدافه ومواقفه داخل الدائرة المسموح له بها.

وبعد أن يكون الشخص الثاني قد انصاع للأول طمعاً في حظوته وخوفاً من تحدى ضغوطه يكون قد اعتقد بأن ما ناله من تفوق على الآخرين في التقرب من الشخص الطاغوتي - الذي قد يمنحه الحق في فرض بعض السيطرة المحددة عليهم - هو تعويض له عما فقده من استقلال وما قدمه من تنازلات للشخص الطاغوتي، وتكون الحقيقة أنه قد دخل دائرة اللاتراجع في استعباد الشخص الطاغوتي له. لقد صنع له كبرياءه المزيف الذي جعله يخسر كل شيء من أجل الحفاظ عليه، ووضعه بذلك أمام خيارين لا ثالث لهما إما أن يحافظ على ذلك المكسب الموهوم المتمثل في حظوة الشخص الطاغوتي وما منحه له من

سيطرة على الآخرين، وإما أن يعرض نفسه للتخطيط الكامل إذا حاول تخدي إرادته. وهو الأمر المستبعد تمامًا لأن استضعاف النفس كالكائن الحي ينمو ويكبر بمرور الوقت وتعدد المواقف حتى يصير وحشًا مرعبًا يستقر في النفس ويبعث فيها الرهبة عند أي تفكير في تخديه.

كما أن الشخص الطاغوتي لن يتأتى له إحكام قبضته على الشخص المسيطر عليه إلا من خلال إحكام قبضته على وعيه؛ ولذلك فهو يعزله عن أي شخص لديه الجرأة على تخديه، كما أنه يعمل على عزله شعوريًا عن أي مصدر قد يتأتى منه الوعي القادر على كشف زيفه وتخدي غطرسته.

إنه يضعه في طريق وحيد ويغلقه عليه تمامًا، ويفهمه أنه لكي ينال رضاه فلا بد أن يتجرع المرار ويشهد أمام كل الناس أنه شهد مذاب. .
إنها درجة من الإضلال والكيد لتزول منها الجبال.

وبذلك يستمر الشخص الواقع تحت السيطرة الطاغوتية في اتخاذ الخيار الأول وهو تحقيق رضا الشخص الطاغوتي بشكل مطرد حتى يصير هذا أمر ميكانيكي مستمر على الدوام، فهو لا يريد إلا ما يحقق رضا الشخص الطاغوتي حتى تذوب إرادته في إرادة ذلك الشخص الطاغوتي تمامًا، ولأن هذا ما يصنع له مكسبه الموهوم فإنه يجد الراحة والسعادة في أن تمثل إرادته وإرادة الشخص الطاغوتي على الدوام.

وبذلك عندما يتعرض ذلك الشخص الواقع تحت تلك الدرجة من السيطرة الطاغوتية لموقف من المواقف فإن الشخص الطاغوتي يتركه يفعل ما يشاء في اختيار موقفه وهو واثق تمامًا أنه لن يشاء إلا ما يريده هو.

بينما الشخص المستعبد الذي بات مع مرور الوقت يختار مواقفه بتمثل إرادة الشخص الطاغوتي يعتقد أنه يختار هذه المواقف على إرادة حرة منه مع أن الحقيقة أن إرادته قد ذابت تمامًا في إرادة الشخص الطاغوتي، وأنه هو نفسه يدرك في المستويات الشعورية العميقة مرارة الفصام الفظيع بين إرادته الموهومة ووضعه الزائف وبين الواقع الحقيقي لعبوديته.

وهكذا لا يشاء الشخص المستعبد شيئًا إلا ما يريده الشخص الطاغوتي، في نفس الوقت الذي يعتقد فيه أنه يحقق ذاته ويتقدم إلى الأمام نحو القوة وفرض السيطرة على الآخرين.

وقاعدة الانطلاق للخروج من محرقة السيطرة الطاغوتية هي الوعي الإيماني.
لا بد أن يعي الإنسان المستعبد بحقيقة استعباده وزيف العالم المصطنع الذي يضعه فيه
الشخص الطاغوتي.

الوعي بحقيقة أن حرية الإرادة هي الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض
والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان وأن التفريط فيها خيانة.

لا بد أن يعي أن أي خسائر من الممكن أن يتعرض لها نتيجة لتحديه لهذا الشخص
الطاغوتي هي أقل كثيراً من الخسائر التي يعاني منها بالفعل نتيجة تسليمه إرادته لهذا
الشخص؛ لأن فاقد الإرادة هو فاقد كل شيء.

لا بد أن يعي أنه لا حاكم في هذا الوجود إلا الله، ولا حق في هذا الوجود إلا الحق
الذي يحقه الله، وأنه لا قيم ولا معايير من الممكن أن نحتكم إليها في هذا الوجود إلا القسيم
والمعايير المستمدة من دين الله، ولا طاعة لأحد في هذا الوجود إلا لله ولمن أمرنا الله
بطاعته، فإذا حلل أحد شيئاً حرّمه الله أو حرّم شيئاً أحله الله فلا طاعة له؛ لأنه "لا طاعة
لمخلوق في معصية الخالق".

لا بد أن يعي أن تبعيته لهذا الشخص الطاغوتي واستسلامه له وإيمانه بصحة ما يراه
وحبه لكل ما يذهب إليه حتى ولو تعارض مع أحكام الله وتعاليمه أنه بذلك يجعل منه نداً
لله يحبه كحب الله أو أشد حباً، وكما يقول الرسول ﷺ: "المرء مع من أحب يوم القيامة"،
أي: أنه يكون بذلك قد خسر كل شيء الآخرة والدنيا معاً من أجل دنيا يصيبها غيره.

يقول الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ إِندَادًا يُحِبُّونَهُمْ
كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَن لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرًا مِّثْمَ كَمَا تَبَرَّوْا مِنَّا
كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾

(البقرة: ١٦٥-١٦٧).

ويقول تعالى: ﴿ وَرَزَّوْا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا
فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّئْنَا اللَّهُ هَدْيَكُمْ سَوَاءٌ

عَلَيْنَا أَجْرٌ عَلَيْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ (إبراهيم: ٢١).

ويقول تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ (طه: ٤٧ - ٤٨).

**٤- الكبر كقييد كبير
على حرية الإرادة**

الكبر كقييد كبير على حرية الإرادة

الكبر هو الجريمة الأولى في الوجود.

الكبر هو التحدي الجاحد لإرادة الله.

الكبر عائق مريع يحول بين الإنسان وبين الحقيقة.

وبينه وبين الإيمان.

وبينه وبين الحب.

وبينه وبين الصدق.

وبينه وبين الحرية.

وبينه وبين الراحة.

وبينه وبين الأمان.

وبينه وبين كل ما هو جوهرى في الحياة.

وبينه وبين امتلاك القوى الحقيقية التي من الممكن أن يصنع منها شخصيته.

ولكن الناس قد تنظر إلى الكبر على أنه مجرد عيب أخلاقي مثله في ذلك مثل الكثير من

العيوب الأخلاقية الأخرى، بل إنه قد لا يقابل بالاستياء الذي تقابل به عيوب أخلاقية

أخرى هي في حقيقتها في مرتبة أدنى منه كثيراً من ناحية الاستهجان الديني لها.

يقول الإمام سفيان بن عيينة: من كانت معصيته من شهوة فأرجو له التوبة فإن آدم

عصى مشتتاً فغفر له.

فإذا كانت معصيته من كبر، فأخشى عليه اللعنة فإن إبليس عصى مستكبراً فلعن.

ولكن ما هو الكبر؟

يعرف الرسول ﷺ الكبر فيقول: "الكبر: هو بَطْرُ الحقِّ وَغَمَطُ الناسِ" وبطْر الحق: أى رفضه ودفعه ورده على قائله، الخلاصة: إنكاره، وغمط الناس: أى احتقارهم والاستعلاء عليهم.
وفي الحقيقة فقد أقام الإسلام حرباً ضروساً لا تنقطع ولا يهدأ لها أوار ضد الكبر والمستكبرين في الأرض إلى يوم القيامة.

يقول رب العزة عن نفسه في القرآن الكريم:

﴿ إِنَّهُ لَا تُحِيبُ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ (النحل: ٢٣).

﴿ وَلَا تَمَشُ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (لقمان: ١٨).

تُرى ما هى قيمتك في هذا الوجود إذا كان الله لا يحبك.

وهذا القرآن هم وسفه منهم.

﴿ وَلَا تَمَشُ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾

(الاسراء: ٣٧).

من أنت؟ ومن تكون؟ وهل تستطيع أن تخرق الأرض؟! .. يا لها من سخيرية. وماذا تكون أنت مهما بلغت أو تعددت محاسنك بالنسبة للأرض لكى تستطيع خرقها؟! ..

مخلوق ضعيف بهيم على وجهه مثلك مثل الملايين غيره الذين طوهم هذه الأرض وصاروا بعض تراها الذى تسير عليه أنت الآن.

وماذا تكون أنت بجانب الجبال؟ مخلوق ضعيف هين لا يكاد يبين، بينما هى على شموخها وعظمتها وجمالها وضحامتها التى تراها هكذا على مر الأزمان والعصور تاتى لله طائعة خاشعة مقرة له وحده بالكبرياء والعظمة والجبروت.

والكبرياء لا يليق إلا بالله الواحد القهار، وقد جاء فيما يرويه الرسول ﷺ عن رب العزة في حديثه القدسي: (العز إزارى، والكبرياء ردائى، فمن ينازعنى عذبتى) (١).

نعم إذا كان الله قد جعل الكبرياء له وحده فمن هذا الذى يريد أن يشاركه فيه.

(١) جاء في شعب الإيمان للبيهقي ٢٨٠/٦ حديث ٨١٥٧، وفي الأدب المفرد للبخارى ١٩٤/١ حديث ٥٥٢ "باب الكبر".

ولذلك فقد جاء الحديث النبوي يقرر بكل حسم أنه: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"^(١).

فالتكبرون ليس لهم إلا مصير واحد تقرره النصوص بكل حسم أيضاً هو النار.
جاء في الصحيحين عن الرسول ﷺ أنه قال: "قالت النار: أوثرت بالمتكبرين"^(٢).
وعنه ﷺ في الصحيحين أيضاً أنه قال: "ألا أخبركم بأهل النار؟ كل غثل جواظٍ مُستكبر"^(٣).

والخسف أو الإذلال في الدنيا قد يصيب بعض المتكبرين ولا يصيب البعض الآخر لاستدراج الله لهم في غيهم، يقول الرسول ﷺ: "إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج"^(٤).

أما قاعدة الخسف والإذلال والتحقير والمهانة يوم القيامة فإنها قاعدة عامة تطبق على المتكبرين أجمعين فلا يفلت منها أحد، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: "يخسر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صورة الذر (أشبه بالحصي) يطوهم (أي: يدوسهم) الناس هوامهم على الله ﷻ"^(٥).

نعم.. إن الجزاء العادل للمتكبرين في الأرض الذين يتحدون إرادة الله ويتعالون على خلقه هو أن يُداسوا بالأقدام يوم القيامة.

(١) جاء في صحيح مسلم ٦٥/١ حديث ٢٧٥، ٢٧٧، ومسنده أحمد ٦٠/٧ حديث ٣٩٤٧.

(٢) جاء في صحيح البخاري ١٨٣٦/٤ حديث ٤٥٦٩، ٢٧١١/٦، ٧٠١١، وفي صحيح مسلم ١٥١/٨ حديث ٧٣٥٢، ٧٣٥٤.

(٣) جاء في صحيح البخاري ١٨٧٠/٤ حديث ٤٦٣٤، ٢٢٥٥/٥، ٥٧٢٣، وفي صحيح مسلم ١٥٤/٨ حديث ٧٣٦٦.

(٤) جاء في المعجم الأوسط للطبراني ١١٠/٩ حديث ٩٢٧٢ بلفظ: (إذا رأيت الله يعطي العبد ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك له منه استدراج)، وكذلك في المعجم الكبير ٣٣٠/١٧ حديث ١٤٦٠٠ بنفس اللفظ السابق، كما جاء في مسند أحمد ٤٥٧/٢٨ حديث ١٧٣١١ بلفظ: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج)، وفي الزهد لأحمد بن حنبل ١٢/١ بلفظ: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنه استدراج).

(٥) جاء في الزهد لأحمد بن حنبل ٢٢/١ بلفظ: (يخاء الجبارين والمتكبرين رجال في صورة الذر يطوهم الناس من هوامهم على الله ﷻ حتى يقضى بين الناس).

الكبر يودى إلى أن يتفوق الإنسان داخل ذاته جاعلاً منها إلهاً آخر مع الله، ومن هنا كان الكبر قريناً للشرك.

الكبر يودى إلى الخوف من كل شيء قد يُعَرَّضُ صورة الاستعلاء التي يديها المتكبر للمساس، وما أكثر الأشياء التي من الممكن أن تُعَرَّضَ لذلك.

الكبر يودى إلى التضحية بكل ما هو جوهري في سبيل الإبقاء على كل ما هو شكلي.

الكبر يودى إلى أن يعيش الإنسان في حصار من كراهية الناس ونقمتهم.

الكبر يودى إلى هزيمة الإنسان الحتمية في الحياة لتعارضه مع المرونة التي تستوجبها معاركها.

الكبر يودى إلى تردى الإنسان السريع في هاوية الاستعاضة بالمكاسب التفعية عن المقومات الحقيقية للإنسان.

الكبر يودى إلى أن يحيا الإنسان فاقداً كل شيء.

فاقداً حياته الدنيا.

واقداً حياته الآخرة.

كل ذلك في سبيل الدفاع عن شيء واحد هو عبادة نفسه، والشعور الدائم بالتعالى على الناس، والنار مثوى المتكبرين.

إن العزة في الإسلام هي عزة الخضوع للحق، عزة التعالي على الباطل وتحديه ومواجهته بكل ما أوتى الإنسان من عزم وقوة وقدرة على التضحية وتحمل الخسائر.

عزة الخضوع للحق الذي هو أوامر الله التي يجد المؤمن منتهى عزته في الخضوع لها.

إن معاندة الحق والحقيقة هي اختيار الإنسان لطريق التردى في هاوية الكبر والزيغ والضلال.

فهل من الممكن أن يقيم الإنسان فوق ذلك كبرياءه؟؟!!..

**هـ- ما الذي يمثل شخصية الإنسان
عمل الإنسان أم البرستيج**

ضد البرستيح

أنت من؟....

أنت عملك....

تحرر من كل أردية^(١) الزيف التي تحجبك عن حقيقة نفسك وحقيقة الآخرين.

ما هي حقيقة وجودك؟ وما هي حقيقة الإنسان بوجه عام؟

أيها الإنسان ما هو المعيار الحقيقي لتقييم نفسك وتقييم الآخرين.

هل هو أمر آخر غير عملك وعمل الآخرين؟

هل من الممكن تقييم الإنسان بشيء آخر غير الشيء الناتج عن إرادته؟

وهل هناك شيء آخر يتج عن إرادة الإنسان سوى عمله؟

وأى فضل للإنسان فيما لا إرادة له فيه؟!

يقول تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات: ١٣).

ويقول الرسول ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم"^(٢).

ويقول كذلك: "الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى"^(٣).

(١) أردية: جمع رداء.

(٢) جاء في صحيح مسلم ١١/٨ حديث ٦٧٠٧.

(٣) جاء في فتح القدير ٤٥/٧، وكذا في كشف الخفا للمجلون ٣٢٦/٢ حديث ٢٨٤٧ بلفظ: (الناس مسترون كأسنان المشط ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى).

وإذا أخلصت النية لله فلا فرق بين العمل الديني والعمل الدنيوي؛ لأنه في هذه الحالة يكون العمل الدنيوي هو أيضًا عمل ديني.

فعمل الإنسان هو الذي يقيم بناء حقيقة وجوده، وتتحدد قيمة هذا البناء بمدى قيمة العمل المبذول على امتداد حياته، وعلى ذلك يكون عمل الإنسان هو الذي يمثل هذه الحقيقة.

إن الفارق الوحيد بين الإنسان الحقيقي الذي يعيش في الحقيقة والإنسان المزيف الذي يعيش في الزيف والضلال هو مدى إيمانه أو عدم إيمانه بهذه القاعدة: قاعدة كون الشيء الوحيد الذي يمثل قيمة الإنسان هو عمله.

من غير المعقول أن يمثل قيمة الإنسان رداء جميل أو مظهر حسن بينما يكون عمقه الداخلي منطويًا على التفاهة والفجور والابتذال.

من غير المعقول أن يمثل قيمة الإنسان انتسابه إلى عائلة أو أسرة كبيرة بينما يكون ما أضافه هو إلى وضعها هو نفس الإضافة التي يضيفها الصفر الحسابي إلى قيمة رقمية كبيرة.

وليس من المعقول أن يمثل قيمة الإنسان ثروته بينما يكون هو تافهًا لا يحسن شيئًا ولم يبذل جهدًا في صنع هذه الثروة أو حتى قد بذل جهدًا ولكن الله هو الذي رزقه بالتوفيق في بذل هذا الجهد بينما لم يرزق غيره بذلك أو أتى بها عن طريق غير شرعي، وهو أمر لا يدعو إلى الفخر بل يعبر عن الوضاعة والحقارة والضياع.

لكن الذين يعيشون في الزيف ينسون كل ذلك ولا يبحثون إلا عن شيء واحد هو ما يحقق لهم وضعًا اجتماعيًا يمكنهم من خلاله التعالي على الناس.

البرستيج.. البرستيج.. البرستيج:

هو كل شيء.. كل شيء.. كل شيء..

ويُضحى من أجله بكل شيء..

ليس مهمًا أن أمتلك شيئًا حقيقيًا ولكن الأهم أن أظهر في الواقع الاجتماعي بأنني أمتلك شيئًا كبيرًا.

ليس من المهم أن أخسر الكثير من الأموال في سبيل إيهام الناس بأنني أملك ثروة كبيرة حتى ولو كان ما أملكه مثقلًا بالديون ومهددًا بالخراب.

ليس مهمًا أن أتكلم كلامًا سليمًا حقيقيًا ولكن المهم أن أهتم بالطريقة التي أتكلم بها حتى أبدو أمام الناس أنني عاقل حكيم، حتى لو كان ما أقوله تافهًا أو مزيفًا.

ليس من المهم أن أكون سعيدًا وأصيح مسار حياتي لأحقق هذه السعادة، المهم أن أبدو أمام الناس أنني سعيد، وأني لم أخطئ في تحديد مساري حتى لو أدى ذلك إلى أن أعيش حياتي كلها في مسرحية مزيفة كل يوم أقدم فيها فصلًا جديدًا.

ليس من المهم أن أخرج من ورطتي وأصنع الصواب وأنتهز الفرصة إذا سنحت لي وأخرج من دنيا الضلال التي أعيش فيها إلى دنيا الحق والإيمان.

لا.. لا.. لا.. هل أعرضُ البرستيج للانهيار؟

لا.. لا بد أن أكمل طريقي وأظل مستمرًا في الضلال؛ لأن رجوعي عن هذا الطريق يعني إقرارًا مني أمام الجميع أنني كنت في طريق ضال، أي: أن شكلي الاجتماعي (البرستيج) الذي يمثل كبريائي الذي أعيش من أجله كان مزيفًا؟ لا.. لا.. فليهن كل شيء من أجل الحفاظ على هذا البرستيج.. الحلال والحرام معًا.

لا تقل لي اترك هذا الطريق.. إن هذا الطريق يسبب لك الوقوع في الكثير من المحرمات.. لا تقل لي هذا.. كيف أعترف على نفسي بذلك وأعرض صورتي للاهتزاز.

لا.. لا.. سأستمر في خطئي أيا كان وأقنع نفسي أو أدعي أمام الآخرين أنه الطريق السليم، وأن ما تدعونني إليه هو الخطأ والحرام والضلال، وسوف تضيع الحقيقة وتختفى معالم القضية في مجتمع يجعل الجهل السائد فيه الحلال حرامًا والحرام حلالاً، ومن ذا الذي يهتم في هذا المجتمع أصلاً بالبحث عن الحلال والحرام أو الصواب والخطأ.. المهم البرستيج، والبرستيج فقط.

وهكذا فالإنسان الحقيقي هو الإنسان الذي يضحى بكل ما هو شكلي مظهرى في سبيل كل ما هو حقيقي جوهرى.

والإنسان المزيف هو الإنسان الذي يضحى بكل ما هو حقيقي جوهرى في سبيل كل ما هو شكلي مزيف.

ومن الطبيعي ألا يتعاطف الإنسان مع الذين صنعوا الزيف بأنفسهم واختاروا أن يعيشوا فيه، لكن المشكلة في هؤلاء الذين ترغمهم الظروف أو يوقعهم الجهل الاجتماعي في عالم

من الزيف والضلال، وعندما تسنح لهم الظروف بالخروج من هذا العالم يصطدمون بهذه المشكلة مشكلة أن خروجهم من هذا العالم إقرار منهم بزيف العالم الذي كانوا يعيشون فيه، وهو ما يتعارض مع كبرياتهم.

وهنا تتجلى مدى قوة النفس ومدى تمسكها بإيمانها وحقائق دينها.

لأن الذي يحمل إيماناً حقيقياً هو الذي ينتهز فرصة الخروج من عالم الزيف الذي أرغم على الوقوع فيه لكي ينطلق منه محطماً عوائق الكبرياء والشكل الاجتماعي التي تحول بينه وبين الخروج من عالم الزيف إلى عالم الحقيقة.. من الظلمات إلى النور.

لأن المؤمن الحقيقي لا يستطيع أن يضحى بالحق من أجل الزيف.. وبطريق الهداية من أجل الحفاظ على كبرياء الضلال والشكل الاجتماعي المزيف.. وإلا فإن إيمانه هو الآخر يكون إيماناً مزيفاً.

وهناك نوعان من البشر المزيفين:

نوع يعيش في الزيف ويرتضيه ويقنع أنه الحقيقة وهؤلاء كالأخسرين أعمالاً الذين قال عنهم القرآن: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٣﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثِرَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٤﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَآخِذُوا بآيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوا ﴿١٠٦﴾ (الكهف: ١٠٣-١٠٦).

أما النوع الآخر من البشر المزيفين فإنهم يدركون حقيقة الهوة السحيقة التي تفصل بين واقعهم الحقيقي وبين واقعهم المزيف الذي يبرزونه ويختفون تحته.

ولكن حاجز الكبرياء يقف حجر عثرة دون اعترافهم بذلك والتخلي عن الوهم والزيف والادعاء والصعود بالنفس من مستنقع الضلال إلى برّ الهداية والصلاح.

وكلما اعتمد الإنسان على المظاهر ليستمد منها قوته كلما افتقد - على التوازي من ذلك - دعائم القوة الحقيقية التي من الممكن أن يصنع منها لنفسه شخصية قوية بشكل حقيقي وليس بشكل مزيف.

ولذلك فالأشخاص الذين يعتمدون على المظاهر في صنع شخصيتهم هم أنفسهم أكثر

الأشخاص ضعفاً.

مهما حاولوا أن يلزموا أنفسهم على البروز للناس في مظهر الشخصية القوية الفريدة من خلال التركيز على أداء كافة المظاهر المشاعة عن سمات الشخصية القوية من حركة ولا حركة، وطريقة أداء للكلام وطريقة أداء للصمت، وأسلوب للدخول في موضوع ما وأسلوب للخروج منه وغير ذلك.

والدليل على ذلك: هو زلزلة مثل هولاء الأشخاص وارتعادهم وتخطيهم في مواقفهم عند تعرضهم لأي موقف ذى شأن في حياتهم.

وقد جاء في وصف الله للمنافقين قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مِّنْ سِنْدَةٍ مَّحْسَبُونَ كُلٌّ صَيْحَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾ (المنافقون: ٤).

وللشاعر الفارسي سعدى الشيرازى كلام رائع في هذا المعنى:

إنما يشرف جسم الإنسان بروح الإنسان..

ليس اللباس الجميل هو إماراة الإنسانية..

لو أن الإنسان بعينه وفمه وأذنه وأنفه.. فبأى شيء يفترق إذن عن نقش مرسوم على جدار..

الطعام والنوم والغضب فتنة وجهل وظلمة..

وليس لدى الحيوان خبير بعالم الإنسانية..

كن إنساناً حقيقة وإلا فانت ببغاء..

تعيد كلاماً بلسان إنسان..

إن لم تكن إنساناً فانت أسير الشيطان..

على حين لا يجد المَلَكُ سبيلاً إلى الظفر بالمكانة الإنسانية..

لو أن طبيعتك الوحشية فنت من جبلتك..

لعتت طول عمرك بروح إنسانية..

يصل الإنسان إلى حيث لا يرى سوى الله..

فانظر إلى أى حد تبلغ بك مكانة الإنسانية..

قد رأيت الطائر يطير سعدًا..

فتحرر من قيد الهوى حتى ترى كيف تصعد بك الإنسانية "أ.هـ.

أقول: أيها الإنسان

تحرر من وطأة (البرستيج) على قلبك.

كيف تجعل من بروازك الخارجى الذى يصطنعه كبرياؤك الموهوم سجنًا لروحك؟!

حطم كل هذه القيود الخائفة واقترّب من حقيقتك.

اسجد لله واعترف أنك لست شيئًا إلا عملك.

تكن إنسانًا حقيقيًا.

أى.. تكن إنسانًا قويًا.

**ثانيًا: ترسيخ المفاهيم والقيم الإيمانية
داخل النفس الإنسانية**

١- ركائز القوة الإيجابية

لا بد من القوة

لا بد من القوة

فالناس ليسوا مع الحق.

ولكن الكثيرين لا يدركون أن الناس أيضًا ليسوا مع الباطل.

وإنما الناس مع القوة.

ومع أن الحق قوة في ذاته.

ولكنه قوة لا بد أن تدعم بقوى أخرى مثل التضحية والبذل والإخلاص والتصميم
والفداء لكي يذيع ويتشرب.

والخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول عن قوة مثل قوة السلطان: "إن الله ليزع بالسلطان
ما لا يزع بالقرآن"^(١).

وللقوة في الإسلام عدة ركائز تمثل جميعها جوانب وأركان العقيدة الإسلامية، وما تنبئه
في نفس المسلم من وعى إيماني بهذا الوجود، وعلى ذلك فإن قوة المسلم تتمثل في مدى
عمق تمسكه وبقينه بحقائق عقيدته.

إن الإنسان الرباني هو الإنسان الذي تتمحور حياته حول لا إله إلا الله.

فإذا أردت ألا يفوقك أحد قوة فاجعل من لا إله إلا الله قوتك وحرثك وقاعدة
انطلاقك في هذا الوجود.

وهذه هي بعض ركائز تلك القوة.

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١١١/٥ عند تفسير قوله تعالى: (وَأَجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطٰنًا نَّصِيرًا) (الإسراء: ٨٠).

الاعتصام بالله

يقول الله ﷻ:

﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَانَكُمْ فِيعَمَّ الْمَوَلَىٰ وَيَعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (الحج: ٧٨).

أيها الإنسان أين تذهب ولئن تلجأ؟

فالله هو المالك الوحيد لهذا الوجود.. هو وحده الذي بيده ملكوت الأمر وهو وحده

الذي بيده الخير والشر.

هو الذي يَبْلُوكَ وهو الذي بيده رفع بلائه عنك.

فكيف تلجأ لغيره؟

وأى قوة في هذا الوجود يمكن أن تقارن بقوة الاعتصام بالله؟ والاعتصام بالله يتمثل في انتهاج تعاليمه وأوامره وشرائعه، والوقوف عند حدوده، وإقامة أركان دينه من صوم وصلاة وزكاة وحج، والتقرب إليه بالسنن والنوافل وقيام الليل، والتوكل عليه في كل حال، والاتجاه إليه في كل أمر والشعور الدائم بأنه معك في كل مكان يراقب كل ما تفعله من صغير أو كبير حتى تبلغ مرتبة الإحسان والتي هي أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك فإذا كان الله مولانا فهل من الممكن أن نلتجئ إلى مولى غيره وهل هناك نصير يمكن أن يدانيه قوة؟.

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۗ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ١٤٥ - ١٤٦).

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مِنَّةٍ وَقَضَىٰ وَتَسْلِيمِهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ (النساء: ١٧٥).

﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (آل عمران: ١٠١).
إن الاعتصام بالله هو أن تتقرب إلى الله بالطاعة حتى تكون عبدًا ربانيًا تتمثل إرادتك
وسلوئك في كل ما تفعل إرادة الله العظمى.

التقوى والتوكل

اقرأ هذه الآية جيدا:

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢٥﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطلاق: ٢-٣).

يعرف الإمام علي (كرم الله وجهه) - فيما يروى عنه - تقوى الله فيقول:

(تقوى الله هي الرضا بالقليل والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل).

إن تقوى الله هي سياج هذا الدين الذي يقى المؤمن من شر نفسه بالشطط إلى مسارب الشيطان ومن شر مكائد شياطين الإنس والجن، ولذلك قال الرسول ﷺ في وصيته لابن عباس: "احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظَكَ"^(١).

ولو عكف الناس على مدارس حقائق دينهم لنحوا بأنفسهم من كثير مما يصيبهم من مهالك، ولأراحوا أنفسهم مما يعانونه من أجل البحث عن الشفاء مما يصيبهم من علل شيطانية.

إنني أسأل الذين يشكون من مس الشياطين الذي يصيبهم، أو الذين يعيشون أعمارهم في ذعر من كيد شياطين الإنس والجن لهم والمتمثل في أعمال السحر والجان.. أسألهم لو عملوا بتلك النصيحة التي وجهها الرسول ﷺ لابن عباس: "احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظَكَ"^(٢).

هل توجد في الوجود قوة يلتجئون إليها لتحميمهم خير من تلك القوة التي تتضمنها تلك النصيحة؟!...

وكما أن تقوى الله هي السياج الذي يحفظ المؤمن من شرور نفسه وغيره فهي أيضا القوة الدافعة التي تخرج به من كل ضائقة وبلية، وهي أيضا سبيله الإيمان المتين إلى الرزق،

(١) جاء في سنن الترمذي ٦٦٧/٤ حديث ٢٥١٦، وشعب الإيمان للبيهقي ٢٧/٢ حديث ١٠٧٤، ٢٠٣/٧ حديث ١٠٠٠٠، ١٠٠٠١.

(٢) المصدر السابق.

وأى رزق هذا؟ إنه الرزق الذى لا يخطر على باله إتيانه من أى طريق من الطرق التى يقيم عليها حساباته، أى رزق هذا؟

﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (الطلاق: ٣).

أى طمأنينة تبعثها فى نفس المسلم هذه الآية!

وهل يحتاج الإنسان لأى سند آخر أو عون من أحد إذا كان الله هو حسبه؟
لقد قُضِيَ الأمر!

إذا أردت أن يكون حسبك الله فتوكل عليه، فأى قوة يحملها المؤمن بين جوانحه إذا كان حسبه الله.

لذلك قال الرسول ﷺ: **﴿ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾** (١).

وفى وصيته لابن عباس قال ﷺ: **﴿ وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ وَإِذَا تَوَكَّلْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَخُفَّتِ الصُّحُفُ ﴾** (٢).

إنها القوة التى تجعل من يحملونها لا يرهبون أحداً غير الله مهما جمع لهم الناس وحشدوا لهم الحشود وحذرهم آخرون.

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (آل عمران: ١٧٣).

أما إذا قيل إن هذه هى أمريكا وما أدراكم ما أمريكا؟ وهذه هى إسرائيل وما أدراكم ما إسرائيل؟ فاخشوهم فخشيناهم فإن ذلك نفى للإيمان ودليل على افتقاد التوكل.

لا بد أن يتيقن المسلم إن إرادة الله هى النافذة فى الكون **﴿ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ ﴾**

(١) جاء فى جامع الأحاديث للسيوطى ١٦٨/٩ حديث ٨١٦٠ بلفظ: (من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله)، ٣٩١/٢٠ حديث ٢٢٤٣٦ بلفظ: (من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله)، وكذا ابن أبى الدنيا فى مكارم الأخلاق ص ١٨ رقم ٥٠، والبيهقى فى الزهد ٣٦٤/٢ حديث ٩٨٦.

(٢) جاء فى سنن الترمذى ٦٦٧/٤ حديث ٢٥١٦، وشعب الإيمان للبيهقى ٢٧/٢ حديث ١٠٧٤، ٢٠٣/٧ حديث ١٠٠٠٠، ١٠٠٠١ بدون قوله: (وإذا توكلت فتوكل على الله).

(الطلاق: ٣) على الرغم من أنف شياطين الإنس والجن. وماذا من الممكن أن يكون شأن هولاء بالنسبة لإرادة الله؟! إنه لا شيء على الإطلاق.

إذن فما السر وراء ما يحدث في الكون؟ ما السر وراء مبادئ هولاء وهولاء في غيبهم وعلوهم في الأرض؟ هناك أسرار كثيرة وراءها حكمة عظيمة.

من أهم هذه الأسرار هذه الكلمة التي يعلمنا الله إياها: ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطلاق: ٣).

فليست الأمور على هواي أو هواك ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ (الإسراء: ١١).

ولكن الأمور تجري بمقادير قد لا نعي نحن الحكمة من وراءها، قد لا نعي الحكمة من وراء تقديم أمر أو تأخير آخر، ولكن كلما تقرب المسلم إلى ربه كلما هداه إلى سبيل الرشاد فاستطاع أن يعي كثيراً من الحكم التي تنطوي عليها هذه المقادير.

الصبر

﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (لقمان: ١٧).

هكذا أوصى لقمان الحكيم ابنه.. فبقدر ما يمتلك الإنسان من قوة الصبر بقدر ما تتحدد قدرته على الصمود في أى صراع.

وفي الحقيقة فإن قوة الصبر تُستمدُّ أساسًا من قوة الإيمان.. فهي مرآة صادقة لما يحمله الإنسان من إيمان داخلي؛ ولذلك فابتلاءات الله للإنسان تكشف عن حقيقة هذا الإيمان بمدى ما يواجهه به هذه الابتلاءات من صبر. يقول الله تعالى: ﴿ وَلَتَبْلُؤُنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُؤُوا أَخْبَارَكُمْ ﴾ (محمد: ٣١).

﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۗ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴾ (العنكبوت: ٢-٣).

ومع أن الله عليم ببواطن الأمور إلا أن الإنسان يُحاسبُ على تحقق هذا العلم فيما اتخذ من سلوك وتصرفات وهو ما تشهد به أعماله عليه يوم القيامة.

والذى يؤمن بأن الله بيده ملكوت الأمر والذى يحيا عمره راجيًا الآخرة لا الدنيا تكون النتيجة المنطقية لموقفه هذا أن تهون عليه شئون الدنيا فلا يجرع لما فاته من مكاسب ولا يضعف لما أصابه من نوازل.

اقرأ معى قول الله ﷻ: ﴿ وَشَرِّ الصَّابِرِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رٰجِعُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٥-١٥٦).

نعم إذا كان الأمر كله لله (ومن له الأمر غيره؟) فإنه ليس أمامنا إلا الصبر.. وما دُمننا راجعين إليه فهو أحكم الحاكمين وأعدل العادلين، وهو الذى وعدنا - ومن أصدق وعدًا من الله - بأن لنا رضاه والجنة على هذا الصبر فكيف بعد ذلك كله لا نصبر!!؟

وبقول أكثر دقة فإن الصبر هو التطبيق العملى لما يحمله الإنسان من إيمان داخلى. ومن

هنا كانت تقسيمات الصبر هي نفسها التقسيمات التطبيقية العملية للإيمان، فالصبر صبر على الطاعة.. وصبر على المعصية.. وصبر على النوازل.. وهي نفس المناحى العملية للإيمان، والابتلاءات المستمرة هي تدريب للمؤمن على قوة تحمل صبره.. ومن ثم فهي مدارج له للصعود بإيمانه إلى منازل العلا والتقرب إلى الله، وعندما مثل الرسول ﷺ: أي الناس أشد بلاءً؟ قال: "الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الناس على قدر دينهم فمن اشتد دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه، وإن الرجل ليصيبه حتى يمشى على الأرض ما عليه خطيئة"^(١).

وعنه ﷺ أنه قال: "من يتصبر يصبره الله وما أُعطيَ أحد عطاءً خيراً أوسع من الصبر"^(٢).
وعنه أيضاً ﷺ: "إن عِظَمَ الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط"^(٣).

وعنه أنه قال ﷺ: "الصبر ضياء"^(٤)، نعم إن أعظم السبل نفاذاً إلى الحقيقة في هذا الكون هو تحمل الآلام، وهذا هو التفسير الحقيقي لهذا الحديث الذي حمل بين كلمتيه حقيقة من أعظم حقائق الوجود.

يقول الله تعالى: ﴿ أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٥٣).
فإذا كان الله مع الصابرين فأى قوة في الأرض تستطيع هزيمتهم!!؟

(١) صحيح ابن حبان ١٨٣/٧ حديث ٢٩٢٠، باب [ما جاء في الصبر وثواب الأمراض والأعراض]، وفي كسز العمال للنضى الهندي ٣٢٧/٣ حديث ٦٧٨٣.

(٢) صحيح البخاري ٥٣٤/٢ حديث ١٤٠٠، باب [الاستغفار عن المسألة]، وكذا في صحيح مسلم ١٠٢/٣ حديث ٢٤٧١، باب [أفضل التعفف والصبر].

(٣) سنن الترمذي ٦٠١/٤ حديث ٢٢٩٦، باب [الصبر على البلاء]، وسنن ابن ماجه ١٣٣٨/٢ حديث ٤٠٣١، باب [الصبر على البلاء].

(٤) شعب الإيمان لليهقي ٢٩٠/٣ حديث ٣٥٧٤.

الزهد والعمل

ما الذى يضعف الإنسان فى أى صراع؟

الإجابة غاية فى البساطة: حرصه على الدنيا.

حرص الإنسان على التمسك بالحياة هو الذى يجعله ينهزم وينكسر فى المواقف الحاسمة. ولذلك فقد كان قواد المسلمين من أمثال خالد بن الوليد يُرهبون أعداء الله بقولهم: "جئناكم بقوم يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة والخمر".

وعندما أخبر الرسول ﷺ الصحابة بأنه: "سيأتى زمن توشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها"، فقال قائل: "أمن قلة نحن يا رسول الله؟"، قال: "لا، بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولنسزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن"، فقال قائل: "يا رسول الله وما الوهن؟"، قال: "حب الدنيا وكرهية الموت"^(١).

إن سلاح الشهادة سلاح لا يمكن أن يضاهيه أى سلاح تمتلكه أمريكا أو إسرائيل.

وسلاح الزهد قوة لا تستطيع صراعات الدنيا إحناء رأس من يحملها.

أما إذا كانت تمتلكك الرغبات فى النيل من متع الدنيا فاعلم أنك مهزوم لا محالة.

والهزيمة التى تقصدها ليست الهزيمة من منظور المفاهيم النفعية الشائعة ولكن من منظور الوعى الإيماني، وهى تعنى تفریط الإنسان فى مفاهيمه ومبادئه الإسلامية وتحوله إلى المعسكر الآخر من البشر معسكر الأشخاص الدنيويين النفعيين الذين لا يستهدفون من حياتهم إلا تحقيق أكبر قدر من الأرباح وإصابة المتع والملذات.

وكون هذه الأشياء غير مستهدفة من الإنسان الرباني فلا يعنى ذلك أنها محرمة عليه أو مكروهة فى حقه، غاية ما فى الأمر أنها لا تمثل شيئاً فى تحديد مسعاه، ولا تشكل خطراً

(١) جاء فى سنن أبى داود ١٨٤/٤ حديث ٤٢٩٩، باب [إن تداعى الأمم على الإسلام]، وشرح السنة للبغوى ٣٣٦/٧.

على انشغال قلبه بذكر الله والآخرة، فإذا توفرت له مع ذلك فلا يوجد أى مانع ديني يحول بينه وبينها.

وكثيراً ممن يتحدثون عن الزهد في الإسلام ويُرَغِّبُونَ الناس في الفقر يتجاهلون أن كثيراً من الأنبياء والصالحين الذين ذكروهم القرآن كانوا ملوكاً أو امتلكوا الكثير من الثروات العظيمة، ولكنهم أقاموا حُكْمَ الله فيها مثل: يوسف، وداود، وسليمان، وأيوب صلى الله عليهم وسلم أجمعين، وذى القرنين وحالوت.

ولا بد من الاستقلال لتحقيق القوة في مواجهة الأعداء، وتحقيق الاستقلال مرهون بالعمل، وكما جاء في الحديث: "ما أكل ابن آدم قط خيراً من عمل يده"^(١).

والعمل بذاته هو نوع من الزهد.. الزهد في الراحة والاسترخاء، والزهد في التساقط والتكلف والابتعاد عن مظاهر التنعم التي تُفَوِّضُهَا مشاق العمل.

والمؤمن يتغلب على احتياجاته الملحة بجهاده في الحياة بالعمل المتواصل، ويستطيع المؤمن من خلال الجهد الزائد والعمل الأكثر والإنفاق غير المسرف أن يتفوق في تحقيق القوة الاقتصادية على كثير ممن يمارسون الأعمال السهلة غير الشرعية.

أى تحكم حياته هذه القاعدة: عمل أكثر إنفاق أقل؟.

وكما ذكرنا وسنذكر في أكثر من موضع فإنه لا تعارض بين تحقيق هذه القوة والزهد في الدنيا، وإن ما يجب على المسلم في هذا العصر هو أن يحرر قلبه من الدنيا ويمتلكها في يديه كقوة لها وزنها في صراعه مع الحياة.

أنت تقدم الآخرة على الدنيا.

أنت لا تستهدف من حياتك تحقيق الثروات والمتع والملذات.

أنت تستقل بنفسك في تلبية احتياجاتك.

أنت لا تحتاج إلى ما عند الناس بل قد تضاهيهم فيما يملكون من قوة اقتصادية.

إذن فأنت قوى ولن تنكسر لأحد.

(١) جاء في صحيح البخارى ٧٣٠/٢ حديث ١٩٦٦، باب [كسب الرجل وعمله يده]، بلفظ: (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نوى الله داود ~~الله~~ كان يأكل من عمل يده).

امتلاك القوة المادية

لا شك أن الصراع يحتدم الآن في الواقع المعاصر بين الإنسان الرباني والإنسان النفعى (البرجماتي) الذي يجد في نمط التفكير الأمريكي المرجعية المذهبية له. ولقد استطاع هذا الأخير أن يكتسح مواقع خصومه مثل: الإنسان الماركسي، والإنسان الوجودي، والإنسان القومي، ولم يبق على الساحة أحد يمثل قلقاً للهيمنة الأمريكية على العالم ونموذجها النفعى البرجماتي إلا نموذج الإنسان المسلم المتدين الواعي، أي: نموذج الإنسان الرباني الذي نتحدث عنه في هذا الكتاب.

إنه الصراع الآن بين الإنسان الرباني الذي تنطلق كل أفعاله من استهداف مرضاة الله وثواب الآخرة، والإنسان النفعى الذي تنطلق كل أفعاله من استهداف أكبر معدل من الربح. ولأن الإسلام دين واقعي فلا بد من الاعتراف بأن عجلة السيطرة المادية وما تحققه من مكاسب مستمرة هي القوة الأرضية المادية العظمى التي تقود في هذه المرحلة الراهنة عجلة الأمور في الواقع الذي نحياه.

هل يعني ذلك التسليم بأن الإنسان الرباني منهزم لا محالة (حق بالمعايير العامة) أمام الإنسان النفعى؟!

طبعاً من غير الحقيقة قول ذلك.

غاية ما في الأمر أنه لكي ينتصر الإنسان الرباني فإنه يجب أن يكون إنساناً ربانياً حقاً لا جزئياً ولا مزيفاً، أي: أنه يجب أن يأخذ بشروط الربانية الحقة ويتمثلها في كل سلوكه وأفعاله.

والقاعدة العظمى التي أرسنها الربانية للانتصار في أي صراع هي ما جاء في هذه الآية الكريمة ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ (الأنفال: ٦٠).

وهكذا جاءت كلمة (قوة) مجردة من أي قيد، وعامة غاية العموم بحيث تتسع لتشمل كل قوة روحية ومادية على السواء.

والإنسان الرباني مُطَالِبٌ بامتلاك وإعداد ما يمكن استطاعته من هذه القوى الروحية والمادية على السواء. إن امتلاك القوة الاقتصادية أمر يوجه الإعداد الذي أمرنا به القرآن، ولكن ليس باستهداف التهافت وراء تلبية الرغبات والفرائز والتطلعات المادية، ولكن بهدف التمكين في الأرض وإعلاء كلمة الله ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ۚ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: ٢١).

كفى سذاجةً فإن الزهد في الماديات وطرحها جانباً لن يخدم إلا أعداء الله وليس ديسن الله. ثم ما هو المعنى الحقيقي للزهد؟ هو أن تملك وتقدر وتستطيع ولكنك تزهد في كل ذلك بتفضيل الآخرة على الدنيا.

أما إذا كنت لا تملك ولا تقدر ولا تستطيع فإن ادِّعَاءَكَ الزهد ادعاءً واهٍ تحاول أن تتستر به على عجزك.

نريد أن نمتلك بقدر الاستطاعة القوة المادية الفاعلة في هذا الصراع؛ لأن هذا ما أمرنا الله به، بدلاً من التهاون في العمل على امتلاكها ومن ثم قبول الهزيمة المحتومة والانحدار إلى ذيل التحكم في هذا الوجود، وإلا فكيف سنجعل كلمة الله هي العليا؟ كيف سنجعل الحاكمة لله في هذه الأرض إذا كنا نحن لا نملك من أمر أنفسنا شيئاً بينما الماديون لهم السلطة العليا في توجيه مسار حياتنا بامتلاكهم تلك القوة الاقتصادية ذات السطوة العليا في هذا الزمان؟ والذي يمتلك هذه القوة هو المسلم الواقعي الواعي بحقائق دينه وواقعه على السواء.

نعم، لا بد أن تحرر من الدنيا قلبك، ولكن إذا كانت القوة الاقتصادية لها سطوتها الحاسمة في هذا العصر فلا بد أن تمتلكها يداك.

ويظل الفرق الكبير حاسماً بين الإنسان الرباني الذي يمتلك تلك القوة من أجل التمكين لدين الله في الأرض، وجعل كلمة الله هي العليا، والإنسان النفعي الذي يمتلك تلك القوة من أجل إرضاء سعيه في تحقيق أكبر قدر من الأرباح وإصابة أكبر قدر من المتع والملذات.

الصدق والاستقامة

يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (التوبة: ١١٩).
ويقول الرسول ﷺ: "إِنَّ الصُّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَصْدُقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَأَنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفَجْرِ وَإِنَّ الْفَجْرَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَأَنَّ الرَّجُلَ لِيَكْذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا"^(١).
وحيث سأل هرقل أبي سفيان عن النبي ﷺ ماذا يأمركم؟ قال أبو سفيان: يقول: "اعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة"^(٢).

إن الصدق قوة ولا يلتجئ إلى الكذب إلا الضعفاء.
والالتزام الدائم بالصدق هو تدريب للنفس على القوة.
والتعود الدائم على الكذب يؤدي إلى إفقاد النفس لدعائم القوة.
إن الإسلام لا يعرف إلا الاستقامة.
الاستقامة في انتهاج تعاليم الله وعدم العدول عنها استناداً إلى أى مبرر.
الاستقامة في الوعي بأحداث الحياة واستخلاص العبرة منها.
الاستقامة في السير على طريق الحقيقة، وعدم التهاون في إحقاق الحق وإبطال الباطل.
الاستقامة في الاحتفاظ بعزة النفس وكبريائها، والحفاظ عليها من الشروخ، والتصدع،
ومن ثم من الأهميار.

(١) صحيح البخارى ٢٢٦١/٥ حديث ٥٧٤٣، وصحيح مسلم ٢٩/٨ حديث ٦٨٠٣، ٦٨٠٥، باب [تبع الكذب وحسن الصدق]، وفي سنن أبي داود ٤٥٤/٤ حديث ٤٩٩١، وفي مسند أحمد ١٤٧/٦ حديث ٣٦٣٨.
(٢) صحيح البخارى ٧/١ حديث ٧، باب [كيف كان بدء الرضى إلى الرسول ﷺ]، وفي رياض الصالحين ٦٢/١ باب [الصدق]، ومسلم ١٦٦، ١٦٣/٥، حديث ١٧٧٣.

والاستقامة أيضًا في الرفق واللين والمرونة في الظروف والمواقف التي تقتضى ذلك.

إن إحقاق الحق مهما نتج عنه من خسائر مبدئية فإنه لا يمكن مقارنة خسائره بالخسائر التي تنتج عن التضحية بالحق والتهاون مع الباطل بسبب الخوف أو حفاظًا على علاقة ما أو حفاظًا على عدم إصابة أحد بمكروه.

ونحن ندعو إلى هذه الاستقامة لا ندعو إلى أمر تحسيني يقبل المناقشة والجدل أو الاعتذار عنه من أجل الحفاظ على أمور أكثر ضرورة وإنما ندعو إلى أمر يستحيل اقتصاده لدى المسلم الحقيقي.

واستقامة المسلم في سلوكه أمر يجسد حقيقة إيمانه، وقدرته على الاستقلال والحرية والتمرد على ضغوط المفاهيم الجاهلية السائدة التي يدعمها طاغوت القهر الاجتماعي. فالمسألة غير قابلة للمساومة، فإما أن تكون مسلمًا حقًا فتتهج طريق الاستقامة في وعيك وسلوكك، وتتمرد على كل هذه المفاهيم، وتحافظ على استقلال ذاتك وسلامتها من الخوف والتخاذل، ومن ثم من التمزق والشروخ والتصدعات، وإما أن تكون واحدًا من أفراد قطيع ذلك المجتمع تظل تتغاضى عن تمزقات نفسك حتى تصير مُعَدًّا تمامًا للذبح والالتهام في أى لحظة.

ونحن لا نعى بذلك عدم المرونة مع الأحداث، ولكن على الإنسان أن يعي أن المرونة في هذه الأمور يُسَمَّحُ بها فقط في دائرة الأمور المؤقتة، وعند ذلك فقط تُحَسَّبُ القواعد الشرعية في المصلحة في الترجيح بين أقل الضررين: الضرر الناتج عن التسهاون في الحق، والضرر الناتج عن التمسك به بحزم دون أن يعنى ذلك - كما يفعل الكثيرون - التسهاون في حقوق قد تبدو بسيطة الآن من حيث الأضرار التي ستتج عن التسهاون عنها بينما يترسب عن ذلك على المدى البعيد إهدار الحقوق أخرى أكبر منها، أو أن يسود ذلك التنازل المستمر في الصراع القائم بين الحق والباطل إلى أن يُطْمَسَ الحق تمامًا ويُنصَرَ عليه الباطل بشكل نهائي، أو أن تضيع الحقوق وتتهب بلا رجعة، أو أن تستسلم النفوس لمصيرها في الانكسار والتصدع بلا أمل في إصلاح ما قد فرطت فيه منذ البداية.

صراع القيم الإسلامية في الواقع المعاصر

وإذا قال لي البعض إننا لا نستطيع أن نواجه لتحديات ذلك الواقع الذي نعيشه وندخل في صراع مع أصحاب تلك القيم النفعية المسيطرين عليه ونحن نحمل تلك المفاهيم والقيم التي نتحدث عنها في كتابك هذا.

أقول لهؤلاء: إنكم لصادقون.. فأنتم حقًا لا تستطيعون حمل تلك المفاهيم والقيم ومعايشة أصحاب القيم النفعية على أساسها.. بله تحديهم بها، ولكن هذا لا يرجع لعيب في قدرة هذه المفاهيم والقيم على المعاشة والتحدى والانتصار ولكن ذلك يرجع إلى ما وصل إليه حال نفوسكم من ضعف ووهن. إن تلك المفاهيم والقيم لا يستطيع أن يحملها ويتدرعها سلاحًا إلا من أقام حقيقة وجوده على ركائز القوة في الإسلام فهل أنتم امتلكتم الإيمان الحقيقي بالله؟ هل شعرتم دائمًا أنه أقرب إليكم من جبل الوريد؟

هل تقرتتم إلى الله بالعبادة والدعاء واستعنتم به في كل أموركم؟

هل حفظتم الله كي يحفظكم؟

هل توكلتم على الله كي يكون حسبكم؟

هل جعلتم رضا الله غايتكم وقدمتم الآخرة على الدنيا؟

هل تدهرتم سنن الله في الأرض وأخذتم بالأسباب في كل أعمالكم؟

هل أعددتهم لأعدائكم كل ما استطعتم من قوة؟

هل رضيتم بالقليل الذي يستر حاجاتكم ويغنيكم عن المسألة؟

هل زهدتم في كل فضل يزيد عن حاجاتكم من متاع الدنيا ونظرتهم إلى زيتها نظرة

العالم المتيقن من مالها المزرى؟

هل حاولتم التفقه والتعمق في أمور دينكم ودنياكم؟

إذا لم تكونوا قد فعلتم شيئاً من ذلك فإنه لن ينفعكم في شيء تعلمكم لتلك المفاهيم والقيم التي أتحدث عنها، ولهذا فأنتم مهزومون لا محالة.

وهل من الممكن التشكيك في تلك المفاهيم وقدرتها على مواجهة تحديات الواقع المعاصر والانتصار عليه ما دامت مُسْتَمَدَّةً من هدى الله.

إن أى تشكيك في ذلك هو نفي لإيمان الإنسان، ولكن لا تظهر قدرة هذه المفاهيم والقيم على المواجهة والانتصار إلا لدى من عملوا على احتمالها.. إلا لدى من اعتصموا بحبل الله وتمسكوا بتعاليمه.. أما من لم يستطيعوا أن يتحرروا من أسر معتقداتهم الجاهلية الباطلة.. أما من لم يستطيعوا أن يتحرروا من كبر أنفسهم وَصَلَفِهَا الذي يَهْوِي هَمُّهُم إلى أرضى أرضين وأسفل سافلين.. أما من لم يستطيعوا أن يتحرروا من شهوات الدنيا ومطامعها فإنهم لا يستطيعون حقاً حمل هذه المفاهيم والقيم ومواجهة أصحاب القسيم النفعية بها.

**٢- الوعى الإيمانى
فى مواجهة الوعى الزائف**

هل نستمد قيمنا من الله أم من الطاغوت؟!)

الله أكبر من كل قوة.

الله أكبر من كل خوف.

الله أكبر من كل سلطة.

الله أكبر من كل وهم.

الله أكبر من أى انكسار.

الله أكبر من أى هزيمة.

الله أكبر من كل شيء.

لا إله غيره ولا معبود سواه.

هو الخالق من العدم وهو الواحد الفرد الصمد.

هو المعين وهو الرحيم وهو الرازق المعطى الكريم.

إياه نعبد وإياه نستعين.

وإياه وحده نطيع.

ولا حاكم لنا سواه.

خلقنا أحراراً وجعل رضاه فى إفراده بالعبودية.

جعل رضاه فى (لا إله إلا الله).

جعل رضاه فى تمسك الإنسان بتلك الحرية.

وجعل غضبه فى التفريط فيها لأى متأله كاذب مزعوم.

جعل رضاه فى طاعته وحده.

وجعل غضبه في إذلال الإنسان لنفسه بطاعته لسواد.
جعل حرية الإنسان بإفراده وحده بالعبودية هي الإيمان.
وجعل انسحاق الإنسان بالرضوخ في عبودية غيره هو الشرك.
لا قيدًا للإنسان في هذا الوجود إلا قيد وضعه الله.. ولا حدًا لانطلاق حرية إلا حد
وضعه الله.. ولا حرام في هذا الوجود إلا حرام حرمه الله.
إنني دائماً أتساءل:
إذا كان الله قد أحل شيئاً فمن في هذا الوجود يملك تحريمه وهو يعلم أن الله لن يحاسبه
على هذا الفعل؟!!!...

ما يريد الله هو المعيار الوحيد للحكم على الأشياء.
فلا تقل لي لا تفعل هذا الشيء، هذا عيب هذا أمر يأباه المجتمع، هذا أمر يصطدم مع
التقاليد والعرف، وهذا أمر لا يتفق مع (البرستيج) قل لي شيئاً واحداً، هل هذا الشيء
حلال هو أم حرام؟ فإذا لم يكن هذا الشيء حراماً فلا يحق لك أبداً أن تنهاني عن فعله.
هناك مطلع لأحد الأناشيد التي يرددتها الإسلاميون يقول:

لا نؤمن أبداً بحدود :: لا نخضع أبداً لقيود

إن هذا المطلع يعبر تعبيراً رائعاً عن حقيقة موقف المسلم الواعي من كل القواعد والقيم
الموجودة في العالم. ومن المفهوم طبعاً أن المقصود هو أننا لا نؤمن أبداً بحدود، ولا نخضع
أبداً لقيود غير الحدود والقيود المستمدة من ديننا.

وهذا الذي ذهبنا إليه ليس اجتهاداً منا، وإنما هو ما أعلنه القرآن بكل صراحة وحسم.

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ (الأنعام: ١١٤).

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ (الشورى: ٢١).

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَآلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا
وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (آل عمران: ٨٣).

﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ (يوسف: ٤٠).

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَتَّبِعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة: ٥٠).
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ
يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ (النساء: ٦٠).
﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾

(النجم: ٢٣).

﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ خَلَوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (الأنعام: ١١٦).
﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾

(المؤمنون: ٧١).

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ
حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥).

فأى حدود اصطنعها البشر أو توهموها يمكنها أن تتخذ من تصرفاتنا أو من سلوكنا؟
أو أى قيود من الممكن أن تخضع لها إرادتنا وتصاب بالعجز والشلل أو الانهزام
والتخاذل إذا لم يكن الله الحاكم الوحيد للوجود هو الذى وضع هذه القيود؟
إن قوة الانطلاق الإيماني تبدأ من هنا.

(الاستسلام التام لأحكام الله والتمرد التام على كل أحكام وأوهام البشر).
ومرد المسلم على كل هذه الأحكام والأوهام والخرافات التى يريد أن يجسده المجتمع
عليها هو جهاد له ضد الطاغوت.

المفاهيم والقيم الإسلامية والأعراف والتقاليد السائدة

هناك مفاهيم زائفة أُلصقت بالإسلام منذ أزمنة قديمة حتى أن الكثير من الناس - إن لم يكن أغلبهم - يعتقدون أنها تمثل الإسلام بينما هو منها براء.

ومصيبة المصائب أن هذه المفاهيم التي تعادى إنسانية الإنسان وتعوق أى تقدم حضارى له، تُحَسَّبُ من جانب أعداء الإسلام عليه ويستغلونها في تشويه صورته الإنسانية أمام شعوب العالم.

لذلك فإنه لا يجدى مع هذه المفاهيم مجرد الحوار الفكرى، وإنما يجب لتحديها حدوث الانفجار الفكرى.

وهذا الانفجار الفكرى المطلوب إن كان شديد الصعوبة في نطاق الحياة الفكرية، فإنه بالغ الخطورة والصعوبة في نطاق الحياة الاجتماعية. إن مخالفة المؤلف أمر ليس بساهلين ولا بالبسيط ولكن يمكن تمثيله بنوع من المعارك. والقاعدة الراسخة في ذلك يعبر عنها المثل الشعبى (اللى يخالف المؤلف يستاهل ضرب الكفوف).

فمحاربة المؤلف لا تجلب عليك محاربة أعدائك فقط، بل غالباً ما ينتج عنها تخلى الكثيرين من أصدقائك عنك، بل وتحولهم إلى أعداء.

إن مجرد مخالفة الإنسان لما هو شائع من الأمور يجعل المجتمع يحكم على سلوكه بأنه خطأ أو حرام.

واستمرار هذه القاعدة في مجتمع ما يعمل على ترسيخ الجهل والانحطاط وكافة المساوئ الاجتماعية المدمرة.

فكيف يكون السلوك الشائع في مجتمع يعاقب من الجهل والفساد والظلم هو السلوك

الصحيح؟ فلا شك أن السلوك الشائع في مجتمع جاهل وظالم وفاسد هو سلوك جاهل وظالم وفاسد أيضاً، وعلى ذلك فإن السلوك الصالح الذي يجب أن ينشده هذا المجتمع لكي يخرج من أزمته لا بد أن يكون سلوكاً غريباً عما ألف من سلوكيات فاسدة.

والتقيد بالمفاهيم الاجتماعية في السلوك والعادات والتقاليد أمرٌ مناقضٌ للتطور الحضارى للبشر ولذلك فإن الأوروبيين يعتبرون التقيد بمثل هذه الأمور ضرباً من الجنون وتعبيراً صريحاً عن مدى التخلف العقلى والاجتماعى لأنه ليس من المعقول أن يتخلى الإنسان عن أمر فيه صالحه لمجرد أنه سوف يتسبب في استياء المجتمع منه لأن سلوكه غير شائع اجتماعياً؟!...

ونحن لا نقصد بذلك محاربة المألوف في ذاته، لأن المألوف أو العرف يكون مقبولاً إذا كان يتعرض لتفاصيل حياتية تختلف باختلاف البيئات والأحوال والأماكن والأزمان ولم تكن مخالفة في شيء من ذلك لشرع الله أو مفاهيم وقيم الإسلام أو حتى الروح العامة له.

أما إذا كان المألوف والعرف هو مجرد اعتقادات شركية كالاعتقاد بقدره الأولياء والاستعانة بهم والتمسح بأضرحتهم، أو تصورات جاهلية عرافية كالتطير والتشاؤم من بعض الأشخاص أو الطيور أو الحيوانات، أقول إذا كان المألوف أو العرف هو شيء من ذلك فإن ضرورة محاربته تكون أمر حتمى لا مفر منه.

وإذا كان المألوف أو العرف يمثل قهراً لإنسانية الإنسان وحرته مثل الخضوع لظلم الظالم أو السكوت على الباطل المدجج بالقوة أو المبالغة في سلطة من السلطات مثل سلطات الأخ الأكبر مثلاً إلى الدرجة التي يسلب فيها أموال باقى إخوته ويستحفظ على إرادتهم، فإنه يجب أن يواجه بنفس الموقف السابق.

وإذا كان المألوف أو المعروف هو الحرمان الاجتماعى للأرملة أو المطلقة من حقها الشرعى في الزواج بحيث يجعل الزواج منها أمراً مشيناً أو يجعل عزوفها عن الزواج مجسداً اجتماعياً مزعوماً، فإن أنسب مكان لذلك العرف هو الجحيم.

وإذا كان العرف هو أن لا يتزوج الابن الأصغر قبل الابن الأكبر أو البنت الصغرى قبل البنت الكبرى، أو لا يقدم لفتاة ما مهرٌ للزواج إلا بنفس القدر الذى يقدم لقريباتها، وكذلك التقاليد التى تجمع بين الاعتقادات الجاهلية الباطلة وبين تبديد طاقات الإنسان

وتكبير حرته مثل الذكرى الأسبوعية للميت، وذكرى الأربعين، والذكرى السنوية.. وفرض الأحزان فرضاً على الأهل والأقارب، والوقوف في وجه ما أحله الله من الطيبات وخصوصاً ما يتعلق بعقد العقود وإقامة الأفراح.

وكذلك الأعراف والتقاليد التي تجعل كبار السن منفردين وحدهم بإدراك الحقيقة والحكمة والتمتع بالسلطة وتوجيه دفة الأمور في المجتمع وإن امتلأت نفوس الكثيرين منهم بالشروخ والتصدعات التي أصابتهم بما كثرة هزائمهم في الحياة واجتمع فيها الجهل والشيخوخة والعجز والإحباط وهو ما له أثره الكبير على آرائهم ومواقفهم التي تتسم عادة بالجهل والسلبية.

إنها آراء (العواجيز) التي كم تحكمت في القرى والنجوع والأحياء والضواحي فأطفت براكين حماس، وعطلت برامج إصلاح، وميقت قضايا وحقائق، وأحنت رعوماً غرماً، وأقرت مظالم وحرمان، ومهدت بوجه عام الأرض للظالمين يعيشون فيها فساداً.

أما إذا اجتمع العلم مع خيرة السنين في رجال أشداء أكسيهم تحديهم وصمودهم لنوازل الأزمان الحكمة والصلابة والشموخ فنعم القادة والقدرة هم وما أندرهم.

وكذلك العادات والتقاليد التي تثقل كاهل الناس بما لا يطيقون، أو تُعقِّد العلاقات المقامة بينهم ومع ذلك يرضخون لها على الرغم مما يصيبهم بسببها من خسائر.

مثال ذلك ما يتحمله أولياء الأمور من نفقات أوجبتها المناسبات التي يحتفل بها المجتمع بشكل استهلاكي مثل رمضان والعيد والمولد النبوي. وكذلك ما يتحمله الخاطب من هدايا ونفقات في تلك المناسبات والمناسبات الشبيهة لها، هذا ناهيك عن المبالغة في التكاليف الأساسية للزواج نفسه.

وكذلك فهناك الأعراف السائدة التي تبالغ في حقوق معينة وتعمل على التوهين من حقوق أخرى؛ فتؤدي إلى استبداد أصحاب الحقوق الأولى، واستعباد أصحاب الحقوق الثانية مثل المبالغة في حقوق الحاكم والتوهين من حقوق المحكوم، والمبالغة في حقوق الزوج والتوهين من حقوق الزوجة.

وإذا كانت الحقائق والاعتقادات والقواعد الحاكمة للعلاقات الأساسية في المجتمع وكذلك معايير الصواب والخطأ، والنافع والضار، والنجاح والفشل، والضوابط الأساسية

لتحديد القيمة الاجتماعية للآخرين كل ذلك يُستقى من النساء المتدمات في السن بما يترسب داخل نفوس أغلبهن من عُقَدٍ وخرافات ومفاهيم جاهلية، فهل من الممكن أن نتظر من أبناء هؤلاء أن يقدروا مجتمعنا إلى الصحو الحضارية المنتظرة بينما اللاتي تقمن على تشكيل وعيهم الداخلي أمثال تلك السيدات؟!.

وإذا كان المؤلف أو العرف بوجه عام طرقاً غمطية في التفكير العقلي تعوق التطور الطبيعي في طرق التفكير وتوجب عن وعيه الرؤى الصحيحة، فإن حركة تقدم المجتمع تكون رهناً لمدى إصرارنا على نفس هذه المفاهيم والتقاليد والأنماط العقلية التي تعوق مسيرته.

إنه قد يكون للإنسان هدف مصري، وقد يكون تحقيقه ممكناً، بمثابة $1+1=2$ ، هذا من حيث الدين ومن حيث الواقع ومن حيث المنطق ومن حيث القدرة.

بل قد يكون ضرورة تحقيق هذا الهدف بمثابة الحياة أو الموت بالنسبة لأطرافه وعلى الرغم من سهولة تحقيق هذا الهدف من كل الزوايا السابقة إلا أن البعض قد يجعل منه أمراً مستحيلاً... لماذا؟!.

لأن المجتمع يرى في ذلك أمراً غريباً.. أمراً شاذاً.. لماذا؟!.

لأنه ليس أمراً مألوفاً بالنسبة للمجتمع.. بل أمراً جديداً أو ينذر حدوثه!!!....

يا سبحان الله: أجمعون الحلال حراماً، وما يحكم به العقل والمنطق جنوناً، وما يجعل الواقع ضرورة تحقيقه بمثابة الحياة والموت أمراً هيناً.. كل ذلك لسبب واحد هو أن هذا الأمر غير مألوف بالنسبة للمجتمع!!!...

وأى عقول تلك التي يمكنها أن ترضخ لمثل تلك المفاهيم، وتقدر أعمارها عبثاً من أجلها؟!.. ما أسخفها وما أضعف النفوس التي تحملها!!!....

ولعل من المفيد أن نوسع هنا من مفهوم التحرر من التقاليد هذا إلى أقصى حد ممكن، فلا نكتفي بالتقاليد الاجتماعية، ولكن بوجوب التحرر من كل الصور النمطية في التفكير العقلي. فالعامل الذي ينتج سلعة ما لا بد أن يبحث عن وسيلة أكثر تطوراً لإنتاجها في شكل أفضل وأسرع أو بخامات أقل تكلفة أو بكل ذلك معاً.

وبالنسبة للطالب فعليه أن يخرج عن ذلك النمط التقليدي في استيعاب دروسه، وعليه أن يكتشف أفضل الوسائل التي يستطيع بها اكتساب أكبر قدر من المعلومات في أقل وقت

ممكن، فلا يكون تحصيل الدروس بالنسبة له مجرد قضاء وقت طويل أمام الكتب.

والمرأة التي تطهر الطعام لكي تكون امرأة مختلفة عن غيرها من النساء الرقيقات عليها أن تبحث عن أفضل الوسائل في طهي الطعام في أقل وقت وأفضل جودة وأقل تكلفة.

أما استيعاب أفضل الوسائل لتربية الأطفال وابتداعها، والخروج عن النمط التقليدي للتربية المستمد من العرف الاجتماعي، والذي يجمع مع حسناته القليلة الكثير من العُقْدِ والأمراض النفسية المترسبة، والمفاهيم الجاهلية السائدة، فإن ذلك أمر يحتاج إلى الكثير من البحث والجهود والدراسة.

وهذا التمرد على الأنماط التقليدية في التفكير تتضح أهميته عند التعرض لقضية مسا أو لمشكلة من المشاكل.. فهنا تتميز العقول الناضجة المتطورة عن العقول النمطية التي تنطلق من الأساليب التقليدية في التفكير.

إن المفهوم الشائع عن الإنسان الذكي العاقل أنه هو الشخص الذي إذا تعرض لمشكلة ما فإنه يستطيع أن يخرج منها بالحلول السليمة التي يتوقعها ويرضى عنها الجميع. بينما المفهوم الحقيقي للإنسان الذكي العاقل الواعي هو أنه الشخص الذي يستطيع أن يخرج بالحلول السليمة لمشاكل يكاد يستحيل حلها من وجهة نظر المجتمع، وإذا تعرض لمشكلة تقليدية من النوع السابق فإنه يحقق فيها نتائج تفوق كثيراً ما يتوقعه منه التفكير النمطي للمجتمع.

موقف الإسلام من الأعراف والتقاليد

إن موقف الإسلام من الأعراف والتقاليد واضح وحاسم، يقول الله ﷻ في القرآن الكريم:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٠).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (المائدة: ١٠٤).

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (لقمان: ٢٠ - ٢١).

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (يونس: ٥٩).

فنحن إذا دعينا إلى الاعتراك مع المؤلف فنحن ندعو إلى الاعتراك مع تصورات ومفاهيم زائفة عن الإسلام ومواقفه من العلاقات الاجتماعية السائدة والتي ترسخت في أذهان الناس وكأنها مُسَلِّمَاتٌ لا تقبل الجدل والنقاش بتناول الزمان عليها.

يقول أحد أئمة المسلمين عن دعوة (لا إله إلا الله) إنها جعلت "الذين ورثوا التقاليد عن آبائهم واتبعوها وعكفوا عليها كأنها أوثان بنفسها أحسوا بالخطر السداهم على تلك العادات العريقة".

بل إن هناك الكثير من السلوكيات الاجتماعية التي وإن يدرك الكثيرون مدى تجافيتها مع الدين، ولكن نظرًا لاطراد صدورها عن الناس فقد فقدت ما كانت تقابل به من استياء لديهم حتى صارت أمرًا مقبولاً له مصداقيته الاجتماعية المصحوبة بأي مبرر يمكن ادعاؤه مثل الضرورة أو تغير العصر أو يسر الدين. وبمرور الأيام تصبح هذه الأمور المحافية للدين

والتي كانت تقابل بالاستياء هي ذاتها قاعدة اجتماعية يواجه من يعتدى عليها بالإدانة والحرب من فئات المجتمع المختلفة.

والأمر سيصير أكثر تعقيداً عندما يجتمع مع تلك المفاهيم والتقاليد الجاهلية المفاهيم والقيم النفعية الغازية في دائرة الضغط الاقتصادي الطاحن.

فالنفعيون (البرجماتيون) الذين يمثلون تلك القيم سيعملون على تدعيم المفاهيم والتقاليد الجاهلية التي تتفق مع مصالحهم. ومن الطبيعي أن يكون من مصلحة هؤلاء أن تتحكم في عقول الناس الخرافات والأوهام التي تطمس قدرًا كبيرًا من وعيهم، وبذلك يسهل انقيادهم إلى الأهداف التي يسعى إليها. كما أنه من مصلحة هؤلاء أيضًا أن تتحكم في سلوكيات الناس تلك العُقَدُ الاجتماعية التي ما أنزل الله بها من سلطان والتي لها أثرها الكبير في نفوسهم وتقييد إرادتهم وإعاقة حركاتهم، وبذلك يكونون هم السابقين إلى أي غاية يشتركون مع الناس في الصراع عليها.

ولذلك نجد في هذه الأوساط التي تختلط فيها المفاهيم النفعية بالتقاليد الاجتماعية البالية أن هؤلاء النفعيين يقيمون حروبًا شعواء إذا أراد أحدٌ أن يكسر تلك التقاليد ولم تكن لهم مصلحة يفترونها هم، فإنهم يدوسونها بالأقدام.

أي أن النفعيين يستغلون تلك التقاليد في محاربة الناس ومحكمة السُّدُجِ منهم بها، أما بالنسبة لهم فإن الحفاظ عليها أهون عليهم من تفويت غاية يبتغونها، وبما ضيعة المغفلين!! الذين يستسلمون لتحكم التقاليد في مصائرهم في هذا الزمان.

أما الظروف الاجتماعية الطاحنة وما نتج عنها من انكباب الناس حول توفير أشد الحاجات المعيشية الضرورية لهم، فقد أدت إلى سقوط الناس في غمرة الغياب العقلي وفقدان القدرة على التعلق بأي أمر من الأمور لا علاقة له بتلك الحاجات المعيشية الملحّة والتي لا تخرج في الغالب عن توفير المأكل والمشرب والمأوى.

وهذا الغياب العقلي أدى بدوره إلى أشياء غاية في التعقيد والتناقض نتيجة التردى اللاواعي لمفاهيم جعل منها الإعلام الموجه تقاليدًا ثابتة وأوضاعًا ذات شرعية اجتماعية مؤكدة، فترى مثلاً طبقات اجتماعية يفترض فيها الوعي العقلي مثل خريجي الجامعات يدافعون عن مفاهيم وتقاليد اجتماعية رائجة ليس فقط ما أنزل الله بها من سلطان،

ولكنها تتناقض تناقضاً صارخاً مع مصالحهم فكأنهم صاروا بذلك أعداءً لأنفسهم.

والإسلام الحقيقي يعنى التسليم التام لله في كل الأمور، أى: التسليم لمفاهيم الإسلام وتعاليمه وشرائعه والذوبان فيها لكى تعيد تشكيل الإنسان تشكيلاً جديداً مستقلاً ومتناقضاً مع الواقع النفى الذى يحاصره الآن من كل الجهات.

وامتلاك الإنسان لهذا التكوين الإسلامى الحقيقى مع امتلاكه للوعى الناضج بمستغبرات العصر، والقدرة على تجسيد الإسلام لذلك الواقع المعاش تجسيدا راشداً، بالإضافة إلى الإرادة الإيمانية الصلبة، كل ذلك يجعله بأى حال من الأحوال لا يقبل أن يكون مجرد فرد فى قطيع من البشر الذين يشكلون ذلك المجتمع، ويرتضون بما يحكمه من تقاليد وقيم، مثلهم فى ذلك مثل الشياه التى ترتضى ما يقدم لها من كلاً وهى فى الحقيقة تغذى لكى تساق إلى الذبح.

فضلاً عن استحالة استقلال النفس عن المفاهيم والتقاليد الاجتماعية التى تفرض نفسها على كل أعضاء المجتمع، فإن معاشره الناس وتحمل أذاهم هو الأمر الأكثر صلاحاً مسن وجهة نظر الدين نفسه؛ لأن المؤمن الذى يعاشر الناس ويتحمل أذاهم خير من المؤمن الذى لا يعاشر الناس ولا يتحمل أذاهم كما جاء فى الحديث النبوى. أى أن العراك مع هذه المفاهيم والتقاليد أمر حتمى لا مفر منه^(١).

وإذا كانت هذه التصورات والمفاهيم والتقاليد الجاهلية بما تودى إليه من تشويه للدعوة الإسلامية النقية وإصابة سلوكيات المسلمين بالتعقيدات والإحباطات التى تعيق وتصعدع نفوسهم؛ فإن كل ذلك يجعل التحدى الاجتماعى الذى ندعو إليه لا يكون فرضاً دينياً فقط، وإنما جهاد بالقول والفعل والسلوك، وهل يكون هناك جهادٌ بغير السيف أكبر من جهاد تلك العقائد والتصورات والمفاهيم والتقاليد والقيم الجاهلية؟

وعلى ذلك، فإن من يرد القيام بذلك التحدى الاجتماعى عليه أن يعى جيداً أن الأمر يعنى الدخول فى معركة شرسة يجب الاستعداد لها وقبول نتائجها وعقد العزم على مواصلة الجهاد والمثابرة فيها بدلاً من أن يفاجأ على غير توقع منه بإعلان المجتمع الحرب عليه بمجرد

(١) ولكن عند اشتداد الفتن يجب اتباع قول الرسول ﷺ - فيما معناه - "فليسك دارك ولتلك على عطيتك" ولهذا يجب الإقرار باختلاف التوجه باختلاف أحوال المجتمعات وهنا يكون الخلاف كبيراً بين ما يجب توجيه الناس به عام ١٩٩٢ (عام الطبعة الأولى) وبين ما يمكن توجيههم به عام ٢٠٠٩ (عام هذه الطبعة).

تحديه لتلك المفاهيم والتقاليد الاجتماعية.

وكون أن الأمر يعني الدخول في معركة تتطلب الجهاد فإن ذلك لا يعني أن التحدى الاجتماعى عمل ثورى انقلابى حماسى لا يحسبُ للأمر حسابها، لكنه عمل يتطلب من الذين يقبلون مشاق تلك المعركة التخطيط والترتيب والإعداد لها بحسابات خاصة غير تقليدية، وفي نفس الوقت فإنه عمل يتطلب الاستعداد لبذل المزيد من الجهد والتضحيات وادخار أكبر قدر من التماسك وشحن أكبر قدر من الجرأة.

فليس من المنطقي أن تحارب التقاليد بوسائل وحسابات تقليدية، وإنما يجب في من يتحدى التقاليد أن يكون النمط العقلي لتفكيره أصلاً غير تقليدى، كما أن الأمر يتطلب أكبر قدر من الثقة بالنفس، والاستناد إلى الإيمان بالله والتوكل عليه، وعدم الركون إلى الجهلاء، أو إلى الذين ظلموا، وإنما الركون إلى أهل الوعي والتحدى من المؤمنين.

* * *

العلاقة بين السلبية والضعف والخمول

والخضوع للأعراف والتقاليد

إن ارتضاء الإنسان الخضوع للتقاليد والأعراف التي تكبله بها كلمات الناس ونظراتهم إليه، وكذلك خضوعه لكل ما هو عادي تقليدي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بما تحمله شخصيته من حمول وضعف وخور وفتر وافتقاد للجرأة والشجاعة، وما تحمله من انكسار داخلي وعجز اجتماعي ومحدودية ذكاء، وهو ما يؤدي إلى الخنق والحقد والحرب الشعواء على الأقوياء الذين استطاعوا تحطيم العوائق التي لم يستطع هؤلاء مجرد الطموح إلى الصراع معها.

فكيف من الممكن أن يكون مقبولاً أن يجعل هؤلاء من أنفسهم حائلاً أمام تقدم العباقرة والثوار والمصلحين؟! وكيف يُرجى لاجتماع أن يتقدم إلى الأمام ما دامت تحكم قواعده الاجتماعية تلك المفاهيم الباطلة التي يعلوها العجز النفسي لهؤلاء!!؟

إن الذين يحافظون على التصورات والتقاليد الاجتماعية إما نفعيون يستغلونها لتحقيق مآربهم، أو بلداء حاملون محدودو الذكاء يتصيدون الأخطاء للأقوياء وينفثون عن حقدهم بإعلان الحرب عليهم لتحديهم تلك التصورات والتقاليد الباطلة.

هذا، ناهيك عن القاعدة التي تقول: "إن الناس أعداء ما جهلوا".

إن الذين ظلموا الذين ارتكوا إلى هذه المفاهيم الجاهلية التي تخدم مصالحهم لن يسهل عليهم ذلك التحدي، إنه يدينهم ويكشف سوءات نفوسهم ويفضح سوء عملهم الذي تسترته سيادة تلك المفاهيم والتقاليد على الأوضاع الاجتماعية وكسبها المشروعية التي لا يجوز لأحد تحديها.

إن الذين يعيشون في اللامشروعية الحقيقية لا بد أن يتستروا في المشروعية المزيفة لتلك التقاليد؟؟؟؟، ولذلك فإنهم لن يدخروا جهداً في محاربة من يحاول تحديها

والاهزاميون من الناس لن يكون من الهين عليهم قبول غيرهم لذلك التحدى، خصوصاً في الأمور التي تقرر القواعد الاجتماعية التقليدية أمام كل من يحاول تحديها بالجنون. إن ذلك لا يثير الحقد في قلوب هؤلاء فقط، ولكنه يفضح ضعفهم الذي كان يتستر في كون التخاذل أمام هذه الأمور هو القاعدة العامة التي لا يستطيع أحد الخروج عنها.

والذي يحدث أن من يحملون الجهل والضعف إذا قبل من يحملون العلم والتحدى الحوار معهم فإنهم لن يكتفوا بذلك بل سيظلوا يتهمونهم بالانحراف والغباء، بل والجنون أحياناً بدلاً من أن يقدروا محدودية وعيهم في استيعاب ما يفعله هؤلاء أصحاب النظرة الأبعد والأعمق عن نظرهم التقليدية للأمور التي يفترون بمصداقيتها في كشف العواقب القريبة للأمور والتي تحول بينهم وبين كشف العواقب الوخيمة في المدى البعيد، وبدلاً من أن يقدروا تواضع قوتهم المتخاذلة أمام كل طموح غير تقليدي بالنسبة لما يفعله هؤلاء أصحاب القوة المتحدية المجاهدة.

الآثار المدمرة لضغط التقاليد على الإنسان

إن التوترات التي نعاني منها بسبب القيود المصطنعة التي أثقلت بها كاهلنا العسادات والتقاليد هي إرهاص دائم للانفجار، انفجار الإنسان المتنازل دائماً، المتخاذل دائماً. الإنسان القلق المرعوب أمام أي محاولة لتغيير الخطأ قد تؤدي إلى أي صدام مع الجهول لا تحمد عواقبه.

ولن يؤدي الارتضاء الدائم للأخطاء الظالمة من الغير إلا إلى إصابة الناس بالمزيد من الإحباطات والانكسارات، وهكذا يصير نسيج الترابط الواهن الذي يجمع بين الشخص والآخر الذي يرغم نفسه والأمر على تحمله هو أقرب ما يكون إلى المشنقة.

وحقيقة الحياة نفسها تختزل إلى اللهاث المرير وراء معالجة الشروخ التي تتداعى دائماً حتى تصير صدوعاً لا تصيب الحياة فقط وإنما تصيب النفس ذاتها وتضعها على حافة الأفيار بشكل مستمر.

وهكذا يظل هؤلاء يعانون من التوتر الدائم الذي يعرضهم للانفجار في أية لحظة. إن الإسلام لا يعرف كل هذا الهراء والانكسار والعبث والضياع الذي تمليه النفوس الضعيفة المتخاذلة من أجل تبرير الخضوع للأعراف والتقاليد السائدة.

إن الإسلام لا يعرف إلا الاستقامة.

الاستقامة في انتهاج تعاليم الله وعدم العدول عنها استناداً إلى أي مبرر.

الاستقامة في الوعي بأحداث الحياة واستخلاص العبرة منها.

الاستقامة في السير على طريق الحقيقة، وعدم التهاون في إحقاق الحق وإبطال الباطل.

الاستقامة في الاحتفاظ بعزة النفس وكبريائها، والحفاظ عليها من الشروخ، والتصدع،

ومن ثم من الأفيار.

والاستقامة أيضاً في الرفق واللين والمرونة في الظروف والمواقف التي تقتضى ذلك.

إن إحقاق الحق مهما ينتج عنه من خسائر مبدئية فإنه لا يمكن مقارنة خسائره بالخسائر التي تنتج عن التضحية بالحق والتهاون مع الباطل بسبب الخوف أو حفاظاً على علاقة ما أو حفاظاً على عدم إصابة أحد بمكروه.

ونحن ندعو إلى هذه الاستقامة لا ندعو إلى أمر تحسيني يقبل المناقشة والجدل أو الاعتذار عنه من أجل الحفاظ على أمور أكثر ضرورة وإنما ندعو إلى أمر يستحيل افتقاده لدى المسلم الحقيقي.

واستقامة المسلم في سلوكه أمر يجسد حقيقة إيمانه، وقدرته على الاستقلال والحرية والتمرد على ضغوط المفاهيم الجاهلية السائدة التي يدعمها طاغوت القهر الاجتماعي. فالمسألة غير قابلة للمساومة، فإما أن تكون مسلماً حقاً فتتهج طريق الاستقامة في وعيك وسلوكك، وتتمرد على كل هذه المفاهيم، وتحافظ على استقلال ذاتك وسلامتها من الخوف والتخاذل، ومن ثم من التمزق والشروخ والتصدعات، وإما أن تكون واحداً من أفراد قطيع ذلك المجتمع تظل تتغاضي عن تمزقات نفسك حتى تصير مُعَدَّاً تماماً للذبح والالتهام في أي لحظة.

ونحن لا نعني بذلك عدم المرونة مع الأحداث، ولكن على الإنسان أن يعي أن المرونة في هذه الأمور يُسَمَّحُ بها فقط في دائرة الأمور المؤقتة، وعند ذلك فقط تُحَسَّبُ القواعد الشرعية في المصلحة من حيث الترجيح بين أقل الضررين: الضرر الناتج عن التهاون في الحق، والضرر الناتج عن التمسك به بجزم دون أن يعنى ذلك - كما يفعل الكثيرون - التهاون في حقوق قد تبدو بسيطة الآن من حيث الأضرار التي ستنج عن التهاون عنها بينما يترسب عن ذلك على المدى البعيد إهدار الحقوق أخرى أكبر منها، أو أن يؤدي ذلك التنازل المستمر في الصراع القائم بين الحق والباطل إلى أن يُطْمَسَ الحق تماماً وينصر عليه الباطل بشكل نهائي، أو أن تضيع الحقوق وتتهب بلا رجعة، أو أن تستسلم النفوس لمصيرها في الانكسار والتصدع بلا أمل في إصلاح ما قد فرطت فيه منذ البداية.

وتظل هذه النفوس تحيا في ذلك العذاب الراكد خلف جدار الخوف من الصدام مع المجهول، وهكذا تظل عرضة للانفجار في أية لحظة.

موقف الإنسان الرباني من الرأي العام

لكل ما سبق فلا تضعفن أمام ما يسمى بالرأي العام.

إن الرأي العام في مجتمع فاسد هو تحصيل حاصل للفساد العام وموقف الإسلام من هذه القضية شديد الوضوح والحسم.

(وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) (الأنعام: ١١٦).

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) (يوسف: ١٠٣).

(وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ)

(المؤمنون: ٧١).

(وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ) (المائدة: ٤٩).

فلا يوجد شيء في الإسلام يسمى الرأي العام، ولا يوجد شيء في الإسلام يعنى الرضوخ للخطأ حتى ولو اجتمع عليه أهل الأرض جميعاً.

إن مجتمعاً تحكمه السطحية والنفعية لا تتوقع من أفرادها أن يصدروا آراءهم إلا عن جهل وسطحية، أو عن حقد ونقمة، أو عن نفعية ولا مبالاة.

إما عن جهل وسطحية حيث ليس هناك دافع في تلك الظروف الطاحنة يدفعهم إلى السعي إلى معرفة الحقيقة أو التعمق في فهم الأمور.

وإما عن حقد ونقمة يدفعها إحساس البعض بالضعف والتخاذل بالنسبة لنفس الأمور التي يقوم بها الآخرون، أو عن نفعية يتغياها البعض من وراء إصدارهم لآرائهم هذه بسواء كان ذلك عن طريق مباشر أو غير مباشر.

أو على أحسن الفروض فإن الكثير من الناس في هذا المجتمع يصدرون آراءهم على

سبيل: (مَشَى حالك - بلاش دوشة - وأنا مالي - أهو فُضُّ مجالس - أهو الواحد يمسك العصاية من النصر؛ أي: من باب إرضاء جميع الأطراف).

وهؤلاء لا يدرون مدى جناية ما يفعلون.

إن تجميع القضايا والخلط بين الصحيح والخطأ لن يمضي بأى مجتمع إلى أى خطوة إلى الأمام، بل قد يعود به ألف خطوة إلى الوراء.

أما إلباس الحق بالباطل، وإقرار الظلم وإعلاء كلمته، وإهدار الحقوق وطمس معالمها، وموالاتة الظالمين ومخافة المظلومين. كل ذلك يدخل في دائرة جريمة قول الزور، وما أدراك ما الذى تعنيه جريمة قول الزور في الإسلام؟!

يقول الحق جل شأنه:

﴿ وَأَجَلَتْ لَكُمْ الْأَنْعَمُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَأَجْتَبُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَأَجْتَبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطُّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج: ٣٠ - ٣١).

وعندما ذكر الرسول ﷺ أكبر الكبائر ظل يردد بانفعال شديد: (ألا وقول الزور، ألا وقول الزور)، حتى قال الصحابة: ليته سكت^(١).

إن إحقاق الحق وإبطال الباطل هو المهمة الأساسية التي يُنَاطُ بها الإنسان الرباني في دائرة العلاقات الاجتماعية، وهو المعيار الأساس للتفرقة بين مجتمع يرقى إلى المثل الإسلامية ومجتمع يرتفع فيه الفساد والضلال وتنزل عليه لعنات الله^(٢).

ولذلك فالإسلام يحذرنا بقوة من الركون إلى الظالمين والميل إليهم واتباع موقف أعوانهم من المنافقين الذين يعينونهم على ظلمهم بتجميع القضايا وإلباس الحق بالباطل.

يقول جل شأنه: ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ (هود: ١١٣).

(١) صحيح البخارى ٩٣٩/٢ حديث ٢٥١١، باب [ما قيل في شهادة الزور]، ٢٣١٤/٥ حديث ٥٩١٨، باب [من اتكا بسون بدي أصحابه]، وسنن البيهقي الكبرى ١٢١/١٠ حديث ٢٠١٦٧.

(٢) أهود فأقول إنه عند طغيان الفساد واحتدام الفتن فالخير هو تضيق دائرته الاجتماعية إلى حد الضرورة والافتقار بقول الرسول ﷺ: "فليسعك بيتك وليتك على عطيتك". والمسألة اجتهادية في تقدير واقع كل مجتمع.

ويقول الرسول ﷺ: (من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام)^(١).

ويقول أيضاً ﷺ: "والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم"^(٢).

إن الباطل لا يصر حقاً مهما اجتمع عليه الناس ومهما طال به الزمن، وما بُنيَ على باطل يظل باطلاً مهما كان ارتفاع هذا البناء.

ولا يكتسب الظلم أى مشروعية فى الإسلام حتى لو ارتضاه الناس جميعاً، بل حتى لو ارتضاه المظلوم نفسه.

ولذلك فإن ذلك الرأى العام الذى تقوم له الدنيا مهابة ليس له فى الإسلام من قيمة - إذا لم يتفق مع شرع الله - أكثر من القيمة الجمعية للملايين العديدة من الصفر الحسابى.

هل بعد ذلك من الممكن أن تهتز نفسك أمام ما يسمى بالرأى العام؟! ۱۱؟

(١) للمعجم الكبير للطبرانى ٢٢٧/١ حديث ٦٢٢٣، بلفظ: (من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام)، وكذا فى شعب الإيمان للبيهقى ١٢٢/٦ حديث ٧٦٧٥، بلفظ: (من مشى مع ظالم يقويه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام).

(٢) للمعجم الكبير للطبرانى ١٤٦/١٠ حديث ١٠٢٩٠، وفى سنن أبى داود ٢١٣/٤ حديث ٤٣٣٨، باب [الأمر والنهى]، ورياض الصالحين ١/١٥١، وكذا فى إتحاف الخيرة المهرة ١٢٩/٧ حديث ٧٠٧٦.

الحرام الأصغر والحرام الأكبر

إذا ساد الجهل بين الناس اختلط الأمر عليهم بين الحلال والحرام بوجه عام، ويكون من الطبيعي أن يفقدوا القدرة على التفرقة بين الحرام الأصغر والحرام الأكبر بشكل أولى. وباختلاط مثل هذه الأمور يكون المجال فسيحاً للأفانين للعب على وتر الحلال والحرام لتحقيق مصالحهم، وفرض نفوذهم، وكسر شوكة الآخرين، وفرض سيطرتهم عليهم. فيصير الحلال ما يخللونه هم، ويصير الحرام ما يحرّمونه هم، ويضعفون الصغير، ويضعفون الكبير (يفيلون النملة ويتملون الفيل)، وأعجب العجائب في هذه الأمور هو أنهم لا يحتاجون في كل ذلك إلى نصير، وإنما الذي يكون في أشد الحاجة إلى نصير هو من يريد أن يضع الأمور في نصابها، فيحلّ الحلال ويحرّم الحرام، ويضع كل حرام في الدرجة السلي يستحقها من التحريم والعقاب.

ولنا أن نتساءل لماذا يستطيع هؤلاء الأفاقون التلاعب بمثل هذه الأمور جاعلين من أنفسهم أرباباً من دون الله، ومؤيدين عادة من أغلب الناس؟؟
الإجابة: إنها لعبة العرف والتقاليد، فنحن في الحقيقة (خصوصاً في مجتمع مثل مجتمعنا المصري) نستمد معاييرنا في الحكم على أغلب الأمور من حيث الحلال والحرام من العرف والتقاليد وليس من الدين.

وإذا تعجب البعض مما أقول أو استنكره فإن سبب ذلك يعود إلى الجهل بالدين السني تفاقم أمره وبلغ مداه وساد بين الناس حتى لم يعودوا فقط يخلطون بين الحلال والحرام، ولا يميزون بين الحرام الأصغر والحرام الأكبر، وإنما إلى الحد الذي لا يدركون معه أنهم يحرّمون ويحلّون الأشياء تبعاً للعرف والتقاليد، وليس تبعاً للدين، وإذا صرخ أحد في وجوههم انتبهوا ليس هذا الذي تحكمون به على الأشياء بالحل والحرم ديناً وإنما عرفاً وتقليداً لم يستطيعوا تصديقه، بل وشكوا في أمره، وأنى هم أن يصدقوا ذلك وحضية ما استقوه من

معلومات صحيحة عن الدين هو أبسط من أن يذكر، وقد اختلط بجهل الخطباء، وتخاريف العوام، ومخاوف وأوهام وعقود الآباء والأمهات، وأضاليل السياسيين والعلماء المحتالين.

حتى وقر في نفوسهم أن الحلال هو ما يُقرُّه العرف والتقاليد والمفاهيم السائدة بين الناس أنه حلال، والحرام هو ما يُقرُّه العرف والتقاليد والمفاهيم السائدة بين الناس أنه حرام. وعلام البحث وراء ذلك إذا كان البحث مُرهِقًا للنفس وضغط الظروف لا يحتمل التعمق في الأمور؟! وأي جدوى تأتي من وراء هذا التعمق في مجتمع تحكمه المفاهيم النفعية؟!.

ويكاد يستوى في مثل هذه الأمور الشخص العادي مع الشخص الجامعي؛ لأن الأمر يتعلق بمدى اهتمام الشخص في حياته بإدراك ما يجب عليه تعلمه من أمور الدين وليس بما حصل عليه من شهادات وعلوم عامة.

أى أن الأمر يكون هكذا:

الحلال هو ما يجعله العرف والتقاليد حلالاً.

والحرام هو ما يجعله العرف والتقاليد حراماً.

والحرام الأصغر هو ما يجعله العرف والتقاليد حراماً أصغر.

والحرام الأكبر هو ما يجعله العرف والتقاليد حراماً أكبر.

ويأتى الأفاقون والمحتالون ويستغلون مثل هذه الأوضاع لمصالحهم الخاصة، ولكسر شوكة الدعاة والمصلحين واتهامهم في دينهم وعقولهم، مؤيدين في ذلك بقطعان من البشر الجهلاء الذين يساقون كالبعير إلى حيث يريد الدهماء.

وأود أن أركز الآن على موضوع الحرام الأصغر والحرام الأكبر فأقول: إن المجتمع قد ينهض لمحاربة حرام أصغر، بينما يفض الطرف عن استفحاش حرام أكبر، ويكون السبب الرئيس في ذلك هو أن الأعراف والتقاليد تعتبر هذا الحرام الأصغر حراماً أكبر، وتعتبر هذا الحرام الأكبر أمراً هيناً لا يستدعى الوقوف عنده كثيراً.

نخذ مثلاً هذا المثال الشائع جداً بيننا: فتى من الفتيان لا يصلى فإنه من النادر جداً في مجتمعنا أن يثير ذلك غضب أسرته عليه، ولكن هذا الفتى ذاته تنقلب الدنيا عليه (في أغلب الأسر) إذا صار يدخن؟!.

سبحان الله.. صحيح أن التدخين أمر مستهجن دينياً لكن هل من الممكن مقارنة ذلك بإثم ترك الصلاة الذي هو أكبر إثم في الوجود بعد الشرك بالله.

ولكن هذا لا يهم ما دام موقف المجتمع بالنسبة لفتى من الفتیان يعتبر تركه للصلاة هو الإثم الأصغر وتدخينه هو الإثم الأكبر.

وكذلك فإن المجتمع لا يعبأ بأن تذهب امرأة لزيارة الأضرحة وتمارس فيها أموراً ما أنزل الله بها من سلطان وتتناقض مع العقيدة الإسلامية تناقضاً تاماً، أو تذهب إلى أحد العرافين وتأخذ كل ما يقوله مأخذ الجد، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ فيما معناه: "من أتى عرافاً أو كاهناً فصدق بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد^(١)"، أما إذا أهملت هذا المرأة إهمالاً ملحوظاً في شأن من شؤون الطعام فإنها تثير بذلك نقمة الجميع عليها.

ومن الطبيعي أنني لست من المنكرين لمدى تأثير الشؤون المنزلية على إشاعة السكينة وتحقيق الاستقرار في الأسر، ولكن ماذا من الممكن أن يكون إثم ذلك بالنسبة لوقوع المرأة في تلك الأعمال الجاهلية التي تعد من الشرك.

وإذا قام شخص ما بفتنة عظيمة لإيقاع أحد الأشخاص في المصائب فإن المجتمع لا يقف كثيراً عند ذلك الأمر نظراً لشيوع حدوثه في تلك العصور الفاسدة، حتى لم تُعدّ هذه الأمور تقابل بذلك الاستهجان الشديد الذي كانت تقابل به في الماضي، أما لو غضب ذلك الشخص الذي تُكاد له المكائد ورفض أن يلقى السلام على ذلك الشخص الذي كاد له المكائد حتى يعترف بجرمه قوبل مرقفه هذا بالاستياء العام لمخالفته الصريحة لحديث الرسول ﷺ: "لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال.. حتى قوله وخيرهما من يبدأ بالسلام"^(٢).

ويبدو هذا المنطق العجيب - الذي لا يستند إلى شيء سوى أنه قد صار عرفاً شائعاً - أن إيقاع الناس في المصائب على الرغم من كونه جريمة دينية كبرى إلا أنه ليس أشد من ترك السلام عندما يحكم الناس ذلك التفكير الأخرق.

(١) السنن الكبرى للبيهقي ١٣٥/٨، ١٣٦، وفي المعجم الأوسط للطبراني ١٢٢/٢ حديث ١٤٥٣، وفي المعجم الكبير ٧٦/١٠ حديث ١٠٠٠٥، وفي مسند أحمد ٣٣١/١٥ حديث ٩٥٣٦.

(٢) صحيح البخاري ٢٢٥٦/٥ حديث ٥٧٢٧، باب [المجرة]، ٢٣٠٢/٥ حديث ٥٨٨٣، باب [السلام للمعرفة وغير المعرفة]، بلفظ: (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا ويخبرهما الذي يبدأ بالسلام)، وفي صحيح مسلم ٩/٨ حديث ٦٦٩٧.

وإذا لم يطلق أحد الدعاء إلى الله لحيته قالوا: انظروا.. إنه يدعى القيام بالدعوة إلى الله مع أنه حليق اللحية، ويرتدى ثياباً إفرنجية، أما لو كان بين هؤلاء أنفسهم من يترك الصلاة أو يرتكب الفواحش مثل: الزنا، وقول الزور، فإنه غالباً لا يوجه إليه لوم.

ويروى في هذا الاتجاه أن أحد العراقيين سأل واحداً من كبار أئمة المسلمين عن حكم دم البراغيث هل هو طاهر أم نجس؟ فقال له:

أستحلون دم الحسين وتسالني عن دم البراغيث!!

ما الذي أريد أن أقوله من ذلك؟

أريد أن أقول للمسلم الواعي: انتبه إننا لسنا بعصمة من الخطأ، فلا تعطِ الفرصة لمن تحكمهم تلك المفاهيم الاجتماعية أن يضيّقوا الخناق عليك خطأ فعلته؛ ليصرفوا انتباهك عن جرائم أخرى يفعلونها هم يهون أمامها خطوك، حتى تظل أنت محاصراً بالضغط الخناق لتلك المفاهيم المشاعة التي يصعب عليك الفكك منها، فتظل مشغولاً بها عن مواجهة جرائمهم.

إن المجتمعات الفاسدة تعيش في متاهات من الإضلال، وعلى من تُنَاطُ به مهمة الإصلاح الاجتماعي أن يحرص جيداً على ألا تَزِلَّ قدمه في شَرَكٍ ينصبه له الأفاقون لكي يعطلوه عن مهمته.

حقيقة ما يسمى برأى الناس

هناك غول مرعب يسمى رأى الناس يُحسبُ له الكثيرون ألف حساب ويضحون خوفاً من إغضابه.

ولكن هل هناك واقع حقيقى يسمى رأى الناس، أم أن هذا الغول الاجتماعى هو مجرد واقع وهمى مزيف مثله فى ذلك مثل الغول الأسطورى.

إذا أردنا أن نفهم ذلك فلا بد أن نحلل واقع التجمعات الاجتماعية التى يتكون منها المجتمع، والتى ينسب إلى مجموعها فى النهاية ما يسمى برأى الناس.

واجتماع الناس عادةً سواء كان فى المجتمعات الريفية أو الشعبية أو المدنية غالباً ما يتخذ شكل المصاطب.. المقاهى.. النوادى على الترتيب السابق، فى تجمعات شبه ثابتة يتراوح عددها ما بين خمسة وعشرة أشخاص^(١).

وفى الحقيقة فإنه غالباً ما يكون هناك حد أدنى من الاتفاق فى المفاهيم والقيم بين أفراد هذا التجمع، ومع ذلك فغالباً ما يختلفون على أى شىء من الموضوعات المطروحة بينهم - وهذا أمر طبيعى يتعلق بالطبيعة البشرية نفسها، ولكن مصيبة المصائب تأتى إذا ما اتفقوا على رأى ما فى قضية معينة.

إن هذا يوهم الكثيرين - وهذا أمر قلماً يتبه إليه الناس - بأن ذلك الرأى الذى اتفقوا عليه يمثل رأى الناس جميعاً؛ لأن محدودية الوعى رسبت فى نفوسهم أن تجمعهم - يعنى الناس، أو فى أفضل الأحوال فإن تجمعهم - يمثل صورة مصغرة للتيارات المختلفة لآراء الناس، وبذلك يكون اتفاقهم على رأى ما فى تجمعهم هو ما يمثل حتماً ما يتفق عليه الناس من رأى.

والواقع أن هذه التجمعات غالباً ما تختلف فيما بينها حول ذلك الحد الأدنى من المفاهيم

(١) من الواضح هنا أن لا أتحدث هنا عن الرأى العام السياسى.

الذى يكاد أن يكون متفقاً عليه داخل كل مجموعة على حدة، وبذلك فهي عادة ما تمثل مجموعة من الأنماط الفكرية التي تفضى في خطوط شبه متوازية، أى أن الحسد الأدنى من المفاهيم الذى يتفق عليه أفراد تجمع ما قد لا يتفق عليه أى تجمع آخر.

ومن الطبيعى أن يكون حديثنا مرتبطاً بخصوصية المجتمع الذى نعيش فيه فى ظل هذه المرحلة التاريخية التي لا يكاد ينتظم أبنائها أى سياق فكرى فى أى أمر من الأمور، ويُستثنى دائماً من حديثنا التيار الدينى الملتزم والذى سنشير إليه بعد قليل.

وعلى ذلك فكل تجمع لا يكون صورة مصغرة للتيارات المختلفة لأفكار الناس، وإنما كل تجمع له خصوصيته الخاصة، فإذا اتفق أفراد على أمر ما فإن ذلك لا يعنى بأى حال من الأحوال تمثيلهم لرأى الناس، بالرغم من أن أفراده غالباً ما يوهمون بذلك ويزعمون، ولكن الحقيقة أن الرأى الذى يتفقون عليه فى أمر ما غالباً ما يذهب أفراد تجمع آخر إلى رأى يخالفه، ويعتقدون هم الآخرون أن ذلك الرأى هو رأى الناس، وقد يتفق أفراد تجمع ثالث على رأى يخالف رأى التجمعين السابقين فى نفس الموضوع، ويزعمون بسدورهم أن ما اتفقوا عليه يمثل رأى الناس.. وهكذا فإنك ترى ما يسمى برأى الناس هو غالباً مجرد وهم ناشئ عن ارتباط شخص ما بتجمع معين من البشر يجعله يعتقد أن اتفاقهم على شىء ما، ما هو إلا تمثيل لرأى الناس فى هذا الشىء.

وأغلب الأمور الاجتماعية التي تثير جدلاً حول مدى مخالفتها للعرف غالباً ما تتخذ هذا الشكل، وهذا لا يعنى أنه ليس هناك من الأمور ما يؤدي إلى اتفاق شبه تام بين الناس عليها، أى: بين كل هذا التجمعات أو أغلبها، وإن تكن مثل هذه الأمور محدودة للغاية.

أما لو نظرنا لهذا الأمر بالنسبة للتجمعات النسائية.. فإن النساء غالباً ما لا يتفقن على أى أمر من الأمور، والطبيعى أن تدخل المرأة فى تناولها لأمر ما هو من باب الحس والشعور، وليس من باب المنطق والعقل، ولذلك فكل امرأة تعطي رأياها فى أى أمر بحسب الجانب الذى تتأثر به، أو يتم التأثير عليها من خلاله، بل إن كل امرأة على حدة قد تُصدِرُ فى الموضوع الواحد عدة آراء مختلفة بحسب الجانب الشعورى الذى تتأثر به فى كل مرة تناول فيها الموضوع.

وعلى هذا فإن ما يسمى برأى الناس هو غالباً مجرد وهم لا يثير الرعب إلا فى قلب المغفلين، ولا يؤدي إلى إحجام النفس الإنسانية وعدوها عن أمر تريده إلا عند المغفلين.

والخائبون فقط هم الذين يرتضون أن يعيشوا حياتهم في الجحيم خوفاً من مواجهة ذلك
الرهيم الكبير الذي يسمى (رأى الناس).

بل إن الذي يحدث في الواقع أن رأى الناس هذا كثيراً ما يستغل ككارت إرهاب في يد
الدهماء، يستخدمونه عندما تقتضى المصلحة ذلك كوسيلة للضغط على هؤلاء المغفلين
لردعهم عما يكون قد أثير في نفوسهم من سخط على واقع مهين يقتضى التفسير الذى
يعانون منه ويستفيد منه هؤلاء الدهماء.

لنفرض أن رجلاً ما أراد أن يتزوج من فتاة أصغر منه في السن بفارق كبير ها هى
الدنيا قد تنقلب عليه لاتخاذها هذا القرار ولو تميات نفس الفرصة لأحد هؤلاء الذين أقاموا
الدنيا عليه لما تردد لحظة واحدة في اتخاذ نفس القرار الذى هاجمه بشدة من قبل.

لنفرض أن إحدى النساء أقامت الدنيا ولم تقعدما على ابنها الذى أراد أن يتزوج من
أرملة أو مطلقة.. دعها هى ذاتها تتعرض إحدى بناتها للطلاق أو للترمل ستقيم الدنيا ولا
تقعدما على هؤلاء اللاتي يُحَرِّمَنَّ ما أَحَلَّ اللهُ ويقفن في وجه من يريد الزواج من مطلقة أو
أرملة.

مَنْ يَحْكُمُ عَلَيَّ مَنْ؟ والموقف من الحُقَّادِ

مَنْ يَحْكُمُ عَلَيَّ مَنْ؟

هذا سؤال في غاية الأهمية.

هل يترك الأمر هكذا مفتوحاً على مصراعيه - كما يحدث في الواقع فعلاً - لأي شخص أن يحكم علي أي شخص.

وهل من الممكن أن يمثل ذلك قلقاً لكبار النفوس؟

إن هناك أصنافاً من البشر ليست إلا كتلاً من الحقد الأسود تمشي على قدمين لا يعملون إلا على التماس زلاتِ الناس بل وهفواتهم وتضخيمها والغض من محاسنهم وتحقيرها. إن النقمة تملأ قلوبهم على كل شيء؛ ولذلك فهم يبادرون الناس باتهامهم بما تحتلج به نفوسهم من أمراض.

وفي الحالة الحضارية المتسمة بسيادة الجهل التي نعاني منها الآن وجد أمثال هؤلاء الفرصة في تشويه أهل العلم والحط من أقدارهم.

فنجد سفيهاً جاهلاً لا يحسن من أمر الدين أو الدنيا شيئاً يتبارى في الحكم على علم العلماء والحط من دينهم ودنياهم.

إن من أصعب الأشياء على النفس أن يجرى حُكْمُ جاهل على عالم.

أو يجرى حُكْمُ ضالٍّ على صالح.

فما بالك بحكم الجاهل الضال على العالم الصالح!!

إن الله ﷻ يقول في كتابه العزيز: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الزمر: ٩).

لا.. لا يسترون.

ولا يحق لأحد أن يحكم على علم العلماء إلا العلماء.

ويقول ﷺ: ﴿ أَفْتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمَجْرِمِينَ ﴾ (٣٥) مَا لَكُرَّ كَيْفَ تُحْكُمُونَ ﴿

(القلم: ٣٥ - ٣٦).

لا.. شتان بين المسلمين والمجرمين.

ولا يحق لأحد أن يحكم على الصالحين إلا الصالحون.

ليست القضية عبثاً وليست المسألة سفاهة، وكبار النفوس يجب أن يمضوا في طريقهم غير عابئين بهذا العبث أو هذه السفاهة.

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (الفرقان: ٦٣).

لكن المسألة قد تتماهى في ظل ظروف مواتية لها إلى التشنيع أو الفتنة أو الإيقاع في المصائب.

وقد يتخذ الحاقدون لذلك العديد من الأساليب المختلفة.

إن لي الحقائق أو إلباسها بالباطل أو تميعها تماماً حتى لا تكاد تسيين، ودس السسم في العسل أو النيل من الآخرين من خلال الشناء عليهم، كل ذلك من الأسلحة الأولية بالنسبة للحُقَّادِ.

والمهم في الأمر أنه إذا تمادى إلى تلك الأمور المُشارِ إليها وصار يمثل عائقاً كبيراً عمن التقدم فإنه لا مفر من تحطيمه.

ولكن لا بد أن يعي الإنسان أنه يحتاج لدرجة من الفطنة والكِيَامَةِ لا تقل عن درجة القوة التي يحتاجها لمواجهة مثل هذه الأمور.

الدائرة الإسلامية

هل يعنى ذلك أن الإنسان الرباني يتحلل من أى قيد اجتماعى؟

لا.. وإنما هو فقط متحرر من كل القيود الاجتماعية التى لم ينزل بها سلطان من الله، هو فقط مقيد بحدود القواعد الشرعية التى تختص بتحديد الحلال والحرام، والصحيح والخطأ، والعيب واللاعيب، ولا يتصحح المسلم إلا بمن يُعَوِّن هذه الحدود ويعملون بها من المسلمين.

أى أن المسألة مسألة دوائر:

دائرة من القطيع الاجتماعى الذى يسير أينما مضى به سائقوه.. وهؤلاء لا عِبْرَةَ على الإطلاق بما يقولونه أو يذهبون إليه من آراء.

ودائرة خاصة من الملتزمين يجب أن يعمل الإنسان الرباني لنصائحها وآرائها ومواقفها ألف حساب.

كيف تفكر المرأة عندنا

إنسانية المرأة

مدخل:

المرأة ليست طبقاً من اللحم الشهى تأكله فتشعر بالشبع والنشوة.
المرأة ليست طبقاً يُشْتَهَى، تتفاوت الرغبة إليها بقدر جمالها كما تتفاوت الرغبة بحسب نوعه وجودته.

المرأة مخلوق إنساني قبل أى شىء آخر، وتعلق المرأة وانشغالها بكل ما هو إنساني أكبر من تعلق الرجل.

فما ينوء به كاهل الرجل من مسئوليات وهموم يجعل من الصعب عليه بمكان أن ينشغل بالأمور الإنسانية بنفس القدر الذى من الممكن أن تنشغل به المرأة التى يتمحور اهتمامها على مثل هذه الأمور.

ولذلك يلاحظ عادةً تفوق المرأة على الرجل فى المجالات الاجتماعية والعاطفية وانتصارها الحاسم عليه فى أى صراع يدور بينهما فى تلك المجالات.

وكيان المرأة الحقيقي فى تلك الروح التى تحتويها والتى تنعكس على كل حركة من حركاتها وكل سكونة من سكوناتها، وجمال المرأة الحقيقي هو فيما تحمله تلك الروح من جمال داخلى.

وقد يجبوها الله مع ذلك جمالاً خارجياً فيكون بمثابة مرآة ساطعة الضوء تعكس بشدة الجمال الداخلى ببريق مبهر يصعب مقاومته.

وقد لا يمنحها الله إلا جمالاً متواضعاً ومن ثم لا يدرك أحد مدى جمالها الداخلى إلا بالاقتراب منها.

إن المرأة الجميلة الروح المتألقة الصورة هى حقاً قوة قاهرة.

ولكن هناك من يتعاملون مع المرأة على أنها طبق من اللحم الشهى، وبذلك يفضلون امرأة على امرأة أخرى بحسب جمالها فقط، كما يفضلون طبقاً من اللحم عن طبق آخر بحسب نوع اللحم وجودته.

بل قد يستبدلون الذى أدنى بالذى هو خير من باب التغير وطرح المثل، وبذلك الرضاة قد يتركون الجميلة ولو كانت حلالاً ويلهثون وراء الخبائث من النساء.

ولا عجب فما دامت المسألة مسألة أظمة شهية فقط فمهما كان الطعام شهياً وحادياً فإن النفس إذا اعتادته فإنها تملأه وتعافه وتبحث عما هو أدنى منه.

ولذلك فإن المرأة الواعية الحكيمة هى التى ترتقى بنفسها عن أن تكون مجرد نوع من أنواع الطعام.

وهنا يتضح لدى من خَبِرَ بِتَجَارِبِ الحياة وعمل فيها فكره التطابق بين الحقيقة الدينية والحقيقة الواقعية.

إن ارتقاء النفس أمر دينى لا شك فيه، ولكن حتى من المنظور الدنيوى البحت فإن المرأة التى تبغى الاحتفاظ بقوتها والاستبقاء على جاذبيتها وإشعاع بريقها فلا بد أن تكتسز بقدر استطاعتها هذا الجمال الداخلى ولا تفرط فى شىء منه؛ لأنه المَعِينُ الذى تستطيع أن ترتكز حتى آخر لحظة من عمرها على القوة المستمدة منه.

والدنيويون من الرجال الرضاة لا يجتذبهم كثيراً هذا الجمال الداخلى ولكنهم قد تردعهم قوته ويتضاؤلون أمام عظمتة ولذلك كثيراً ما يتجنبونه.

أما جمالها الخارجى فمهما بلغ الغاية فى مداه فإنهم إذا نالوا منه واعتادوا ذلك هسان عليهم ومالوا إلى غيره ينشدون فيه بغيتهم التى لا تقف عند نوع واحد من الجمال مهما بلغت مكانته.

ولذلك فالمرأة الحكيمة حتى من الناحية الدنيوية البحتة يجب أن تنأى بنفسها وترفع عن التعامل مع هؤلاء الدنيويين الرضاة.

ويوفر علينا الإسلام التماس كل هذه العبر من تجارب ندفع ثمنها الباهظ من أعمارنا وثقلنا آلامها لسنوات طويلة، هذا لو سرتنا على هداه المستقيم وعملنا بأحكامه والتزمنا أوامره ونواهيه وتعاليمه.

فالإسلام هو الذى جعل قيمة المرأة فى إيمانها بالله وما ينطوى عليه ذلك الإيمان من
الرفعة والسمو والنقاء والطهارة والاعتزاز والترفع بالنفس عن كل وضع من الأمور، وبهذا
الإيمان وما يقتضيه من التزام بأوامر الله وتعاليمه يَهَبُ الإسلام المرأة وجودها الحقيقى
ويحفظه من أى عبث.

الاستسلام للأحزان يعنى الاستسلام للدمار

ما أراه هو أن في كل نفس فينا جانب يميل إلى الحزن! فالحزن جزء لا يتجزأ من كينونة الإنسان، وهو أحد المناقذ التي يخترق بها الإنسان غيوم النفس إلى البصيرة، فوجود الحزن يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتوازن الإنسان نفسه ووعيه واتساقه الداخلى.

لكن البعض قد يتمادى به الأمر في الاتكاء على الحزن إلى درجة مغالى فيها ويستمرئ ذلك وقد يكون في ذلك تدميره.

فالاختلال بالتوازن النفسى للإنسان بالاتكاء على الحزن يجعل منه منفذاً إلى السوهم لا إلى البصيرة، بل وكثيراً ما يصنع الحزن ذاته تلك الغيوم التي تحجب بصيرة الإنسان، ويضع أمام تطلعات النفس عوائق وعوثر ومصاعب لا وجود لها، بل ويكبل هذه التطلعات ذاتها بالعجز والإحباط.

والخلاصة فإن التماذى في الحزن والمبالغة فيه يصيب النفس في النهاية بالشلل والعجز عن التطلع إلى أى رغبة من الرغبات الحيوية في الحياة ويسقطها في مستنقع اليأس والفتور.
يقول تعالى:

﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَرْفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر: ٥٣).

﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ (الحجر: ٥٦).

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح: ٥ - ٦).

فإذا كنت ممن ابتلاهم الدهر فيما مضى من أعمارهم بمكابدة الآلام والارتحال في الحزن فلا تَنْظُرَنَّ إلى الوراء أبداً، ولا تَحْتَفِظَنَّ في نفسك بشيء يتعلق به إلا العظائم والعَبْرَ المستمدَّة منه.

إن من يحمل ذاكرة أثقل من نيران الأرض يوشك أن يتداعى جسده من الإعياء إذا لم تستند نفسه على ركائز القوة الإيمانية.

والذى ينظر إلى الوراء فى ماضيه المولم فكأنه يفتح على نفسه أبواب الجحيم ليعيش فيها.
فكيف نحرق أعمارنا بأنفسنا وقد فتحت لنا أبواب المستقبل!!!.

وكيف نبدد طاقاتنا فى الهموم ولا نستغلها فى محاولة صنع ما نريد به أن نكون!!!.
إن القَدْرَ لا يعادى أحداً بالذات، فهذه فكرة ساذجة جاهلية لا بد أن نتخلص منها..
فكرة تتناقض تناقضاً بيننا مع المفهوم الإسلامى للعلاقة بين الإنسان والقَدْرِ.
وإذا كنا قد استطعنا بفضل الله علينا أن نتخلص من ذلك الماضى ونتصر عليه فلماذا نأسر أنفسنا فى نار هزائمه ولا نطلقها فى جنة انتصاراته.
إن الهزيمة لا تعنى الانكسار والاستسلام والانهيار، وإنما ضرورة إدراك العوامل التى أدت إليها والتخلص منها.

والانتصار لا يجب أن تلهينا نشوته عن إدراك العوامل التى أدت إليه والتمسك بها.
والعوامل الحاسمة التى تدور حولها الهزائم والانتصارات فى أى صراع هى الإيمان والإرادة والوعى، ومن يفتقد هذه الأشياء الثلاثة فإنه يفتقد الركائز الثلاثة فى أى صراع فلا يَنْتَظِرَنَّ إلا الهزيمة.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصَلِّحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾
(يونس: ٨١-٨٢).

ومن هُزِمَ بالفعل فعليه أن يستعيد هذه الركائز ليستند إليها، وبدلاً من أن يحيا فى مرارة الماضى عليه أن ينطلق بها نحو الانتصار.

إن علينا أن نستوعب سُنَنَ الله فى الأرض ونسير على هديها ونلتجئ إلى الله وندعوه أن يوفقنا ويسدد خطانا؛ لأن قَدْرَ الله فوق كل شىء وإرادته هى النافذة و﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (التوبة: ١٢٠).

إن اختزان الأحزان لا يفترق كثيراً عن اختزان الدمار.
ولللحزن فى امتلاك نفوس نساء المسلمين شأن عجيب.

أعرف زهوراً من النساء يتركن أعمارهن تتسربل في الهموم والأحزان اتقاءً لانتقادات
اجتماعي باطل أو إحرازاً لمجد اجتماعي مزعوم أو استسلاماً للشعور بالانكسار والقنوط
والياس.

والعقيدة الإسلامية تعلمنا خصوصاً فيما يتعلق بالاعتقاد بالقضاء والقدر. وكذلك الاعتقاد
باليوم الآخر أنه مهما طالَّت السنون القائمة السواد فلا بد أن فجرًا ما سيأتي بإذن الله.
والتي تؤمن بهذه العقيدة لا يحق لها أن يَتَمَلَّكَهَا الحزن لخطبِ أصابها أو لدهية أَلْمَتْ بها.

التشاؤم شرك

والتفاؤل حقيقة إسلامية

يقول الرسول ﷺ: "الطَّيْرَةُ شَرِكٌ"^(١)، أى: أن التشاؤم شرك بالله، ولقد تضافرت الأحاديث على أن التشاؤم من أى أمر من الأمور شرك بالله. وخطورة هذا الأمر أنه يشيع بين النساء بشكل عجيب (العين التي تَرِفُّ، والقطة السوداء، والغراب الذي ينطق، والمقص الذي يطقطق، وأغرب هذه الأشياء على الإطلاق هو الاعتقاد بأن يوم الجمعة فيها ساعة نجس؛ وذلك يناقض ما جاء عن رسول الله ﷺ أنه في يوم الجمعة ساعة يستجيب الله فيها الدعاء^(٢)، أى: أنها ساعة فرج وليست نجسًا كما يتوهم الناس).

ومن ناحية أخرى فإن التفاؤل حقيقة من الحقائق الإسلامية؛ لأن (الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً)، وكذلك ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، إن الله ينصر من ينصره، و﴿وَنَشِيرِ الصَّابِرِينَ﴾؛ لأن الجنة هي النهاية السعيدة التي جعلها الله للمؤمنين.

(١) سنن ابن ماجه ١١٧٠/٢ حديث ٣٥٣٨، ومسند أحمد بن حنبل ٤٤٠/١ حديث ٤١٩٤، وفي سنن أبي داود ٢٤/٤ حديث ٣٩١٢.
(٢) صحيح البخارى ٢٣٥٠/٥ حديث ٦٠٣٧، بلفظ: (في يوم الجمعة ساعة لا يوافقها مسلم وهو قائم يصلى يسأل الله خيرًا إلا أعطاه)، كما جاء في مسند أحمد بن حنبل ٢٧٢/٢ حديث ٧٦٧٤، بلفظ: (إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله ﷻ فيها إلا أعطاه إياه وهي بعد العصر)، وأيضًا في صحيح مسلم ٥/٣ حديث ٢٠٠٦، ٢٠١٠، ٦/٣ حديث ٢٠١٢، بلفظ: (هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تُقضى الصلاة).

المرأة هي السجن الحقيقي للمرأة في مجتمعنا

لا حقيقى لدى المرأة عندنا إلا ما هو شائع.

وليس هناك معيار آخر يُحتَكَمُ إليه لدى أغلب النساء عندنا في تقديرهن للأمور غير هذا المعيار.

فالمفاهيم الدينية عندهن هي المفاهيم الشائعة المتوارثة عن الإسلام، وهي في أغلبها مفاهيم جاهلية تسودها الخرافات والأساطير والمعتقدات الشركية وتعكس في داخلها ما تنطوى عليه من آثار سلبية، وليس هناك ما يسمى بالتفكير المنطقي العميق لدى النساء عندنا، إنما هناك فقط ما هو شائع.

وعلى ذلك فالمنطقي لديهن فقط هو ما يتفق مع هذا الشائع.

وليس هناك علم ولا ثقافة.

فالعلم والثقافة هما ما ترثه وتلقفه من مفاهيم من النساء الأخريات، لاسيما العجائز أو الكبريات سناً اللاتي ترتبط بهن، حتى إذا أرادت أن تتلقى مفاهيم أخرى عن طريق العلم والثقافة فهي لا تقبل منها إلا المفاهيم التي تتفق مع المفاهيم التي أخذتها من هؤلاء النساء، فما يتفق مع هذه المفاهيم يصير علماً وما لا يتفق يصير جهلاً أو عبثاً لا جدوى من ورائه ولقد خُبرْتُ بالعدد الكبير من النساء الجامعيات الذي قد يبلغ المئات والذي يكفي لقياس الأغلب الأعم من نساء المجتمع على ما يذهب إليه هؤلاء من تعلم فوجدت أن الأغلب الأعم من هؤلاء يستمدن مفاهيمهن ومعاييرهن القيمة من النساء العجائز الجاهلات من ذوى العلاقات هن وكان مسيرتهن التعليمية لم يكن لها سوى هدف واحد هو التشرف بورقة المؤهل في النهاية لا أكثر من ذلك.

وبمعيار الشيوع هذا فهن يفكرن في كل أمور الحياة تستوى في ذلك المرأة الجامعية

والمرأة العادية.

وفي الحقيقة فإن العائق الأكبر في وجه تقدم المرأة في مجتمعنا هو المرأة ذاتها. وهي ذاتها أيضا السُّجَّانُ الحقيقي الذي يكبلها بمواريث عجيبة من الأغلال والقيود ما أنزل الله بها من سلطان.

ومن الطبيعي أن النساء اللاتي أقصدن هنا من النساء المحافظات اللاتي يُشكِّلْنَ أغلب مجتمعنا، أما الفاجرات من النساء والمتحررات الملحقات منهن اللاتي لا يحكمهن شيء فإنهن يخرجن عن الدائرة التي يتوجه إليها كلامي أصلاً.

ولا عجب إذا قلنا إن المشكل الحقيقي لعقل أغلب هؤلاء النساء المحافظات والمرجع الأساس لجُلِّ تصرفاتهن هو الخرافات والأساطير والعقَدُ الجاهلية المترسبة في عقول النساء المعجَّزات أو بوجه خاص سيدات المجتمع المحافظات اللاتي يُطلَقُ عليهن عندنا لفظ (القرشانات).

ومن تَجَرَّعَ الغيظ من تقاليد المجتمع عندنا وعاداته اللا إسلامية يستطيع أن يستقري تلك المفاهيم الجاهلية التي تسيطر على هؤلاء النساء.

فَهُنَّ لَا يَمَلْنَ إِلَّا إِلَى الثبات.. الثبات.. الثبات... والاستقرار.. الاستقرار.. الاستقرار. والوجل الشديد من أي محاولة لتغيير الأمر الواقع والرضا والتسليم بكل شيء أي شيء. كما يميل أغلبهن إلى الالتجاء إلى الخرافات يستمدن منها العون على تحمل قسوة الحياة التي تسببن من أنفسهن في وجودها.

ومن هنا كانت غلبة المعتقدات والأعمال الشَّرِكِيَّةِ على الكثيرات منهن والتي تتمثل في الالتجاء إلى الأضرحة والمقامات يَلْتَمِسْنَ منها العون والمساندة والبركة.

ومصيبة المصائب في التجاء بعضهن إلى أعمال السحر والشعوذة والمعارك المتبادلة بين هؤلاء في أذى بعضهن بتلك الأعمال أو التخلص منها (فَكُهَا)، وما يلزم ذلك من الاستعانة بشياطين الإنس والجن، وهي أمور في الحقيقة لها وجودها الكبير في مجتمعنا وتدخل كلها في أعمال الكُفْرِ.

والغاية التي يبحث عنها هؤلاء هي الأمان.. الأمان.. الأمان.

والشائع الآن أن الأمان يتحدد في النوم فوق سرير من الثروة.

وحقيقة الحقائق في هذا الأمر أنه لا أمان إلا في الإيمان والرضا.

فالإيمان هو القوة، والرضا هو القدرة على مواجهة شتى ظروف الحياة وتقلباتها، ولكن أتى لنا أن نجد من يفهم ذلك.

ولأن هولاء النساء يحملن ميراث القهر العبودي المترسخ في تقاليدنا فإنهن يفرعن من أى محاولة لتغيير كل ما هو قائم بالفعل، مهما حمل من المحافة والظلم، ولذلك فإن المسئول الأساس عن تكيف المرأة عندنا وتقديمها للذبح على يد بعض المتسلطين التافهين من الرجال هو المرأة نفسها.

والتبرير المتوارث لدى هولاء لتلك الحالة السلبية أمام أى ظلم والى سببها ذلك الفرع المترسب لديهن من أى صدام مع المجهول أن ما يحدث هو إرادة الله، أو هو كما يقال في التعبير الشائع لديهن (النصيب).

نحن البشر وخصوصاً النساء منا عبارة عن كائنات لا إرادة لها تسرقها الأقدار حيث نشاء.

ومن هذا المنطق يُكرسُ الرضوخ والانصياع لما يحدث في هذا العالم في كل شىء، فيزجُ بالفتيات في الزيجات اللامتكافئة باسم النصيب، وتحيا المرأة في حالة من العبودية وتحيا عمرها في لهاث متواصل من أجل العمل على ترميم التصدعات المتفاقمة في البيوت السقي تقام على حافة الانهيار بشكل دائم باسم (النصيب)، ويظل هذا اللهاث الممزق لنفس هولاء باسم (النصيب).

ولن يرث أبناء التمزق إلا التمزق، ولن يرث أبناء الانكسار والرضوخ لكل واقع مرير إلا الانكسار والرضوخ إلا في القليل النادر.

وكيف من الممكن أن ينجب هولاء أجيالاً يملؤها العزم والتحدى والصمود على مواجهة قوى الاستكبار العالمية والجيوت الأمريكى والصهيونى؟!

والحقيقة أن هولاء النساء لا يكتفين بما رسخته حياتهن الاستعبادية الممزقة التى صنعها المجتمع الظالم في ذهن أبنائهن، وإنما هن يقمن بشكل مباشر بتلقين أبنائهن وحشو نفوسهن بالخوف والجن والهلح من الصدام مع المجهول، كل ذلك على أساس أن الرضا بالأمر الواقع هو (النصيب) وقضاء الله وقدره.

ما لَكُنْ أنتن والعالم!!.. عليكن أن ترضين بما قسمه الله لَكُنْ، وما تَقَدَّفْتُهُ لَكُنْ الدنيا، وما يتفضل به عليكن الظلمة والطغاة وأصحاب الشأن، هذا هو نصيكن الذى قسمه الله

لكن، وهل يحق لأحد أن يعترض على قسمة الله له ١١٢.

مفاهيم الجهل والاستعباد والتمزق هذه هي المسئولة عن حالة التشوه العقلي والنفسي التي يعاني منها الكثير من أبناء هذه الأمة.. وكيف يستطيع جيل يحمل مثل هذه المفاهيم أن يواجه قوى الاستكبار العالمي التي لا تعتمد إلا على المنطق العقلي والقواعد العلمية في تقديرها للأمور ١١٢.

هم امتلكوا المنطق العقلي والعلم ونحن استعضنا عن المنطق والعلم والوعي الديني بالجهل والانكسار والخرافة، ولا نستطيع أن نعرف إلى متى يعتقد النساء عندنا أن الظلم هو نصيبهن من هذا العالم!!!.

إلى متى يعتقدن أن الأقدار تعاديهن بالذات دون سائر البشر ١١٢.

إلى متى لا يفهمن أنه كما أن ما وقع من أحداث هو نصيب، وما سيقع منها هو نصيب، فإن مقاومة كل أمر واقع ومحاولة تغييره هو نصيب أيضًا!! أما ذلك النصيب المطلق النهائي الذي يعتبره إرادة الله التي يجب التسليم بها فهي النتيجة النهائية من كل هذه الأمور.

وأقول - لمن يستطعن استيعاب مثل هذا الكلام - : إنه ما دام ليس هناك من يطلع على الغيب ليعلم ما الذي أراده الله لنا في المستقبل فليس هناك شيء يمكن اعتباره في علمنا نحن النصيب الحتمي والمطلق والنهائي، فكل شيء قابل للتغيير في هذا العالم، وتلك سنة الله في خلقه.

حقيقي أنه قد يكون هناك أمور معينة أراد الله نفاذها في هذا العالم، لكننا لا نستطيع أن ندرك هذه الإرادة لكي يمكننا التسليم بأمر ما دون آخر فلا نعمل على محاولة تغييره.

وقد أردت من كل ما سبق أن أُبين ما هي المفاهيم التي تحتل السلطة العليا في استيعاب ووعي المرأة، ومن ثم في القرارات التي تتخذها في حياتها.

ولذلك فالفتاة أو المرأة عامة عندنا عندما تتخذ قرارًا ما مهما كانت خطورته في حياتها فإنها عادةً تلتفت يمينًا ويسارًا تستقرئ آراء النساء حولها في هذا القرار، ومن الصعوبة بمكان أن تجد واحدة منهن تستطيع أن تتحدى تلك التقاليد البالية التي تكبلها بها النساء الأخريات وخصوصًا العجائز منهن.

وهكذا توقف المرأة حياتها رهينة لتلك القيود.

* ما اختاره أبواك هو الصواب أما أنت فصغيرة لا تعلمي من أمر الدنيا شيئًا.

* مهما فعل زوجك ومهما كان سلوكه معك ومع نفسه أو مع أولاده أو مع الآخرين فلا يجوز لك أن تمردي على ذلك؛ لأن هذا هو نصيبك وقضاء الله وقدره، وهل يستطيع أحد أن يتحدى النصيب والقضاء والقدر!!؟.

* عيشي حياتك كما هي لا تتحدثي عن الحلال والحرام أو عن الصواب والخطأ، ما لنا نحن وتلك الشئون.

* حياتك مطبخك وشئون بيتك، ودينك في قلبك، وعلمك في نصائح الأكبر منك، فلماذا تشغلين نفسك بالبحث والقراءة!!؟.

* دينك في قلبك، فما الداعي لتعلمه من مصدر آخر!!؟ وعلمك فيما تتعلمينه من نصائح الأكبر منك، فما الداعي لقراءة الكتب والاهتمام بذلك الشيء الذي يسمى الثقافة!!؟ وحياتك هي مطبخك وشئون بيتك، فلماذا تضيعين حياتك بالانشغال بالقضايا العامة التي لا شأن لنا بها!!؟ وكيف تجرئين على الحديث عن رغبتك في المشاركة فيها!!؟.

* مات زوجك فترتدي أثواب الحداد، ولتحافظي على إقامة مراسم العزاء كل أسبوع وكل موسم وكل عيد، سنة، اثنين، ثلاث سنوات، أو أكثر لا يهم، المهم أن تكسبي رضا المجتمع، وأن تثبي له أصالتك بحفاظك على تلك التقاليد الدالة على صونك ذكرى زوجك.

* أجننت!!؟ أتقبلين الزواج من آخر حتى ولو كنت في ريعان شبابك وأيا كان تقوى المتقدم لك وتعهد بتقدم الرعاية اللازمة لصغارك، فماذا سيقول المجتمع عنك عند ذلك!!؟.. اهتمت بشئون نفسها وأهمت صغارها!!؟ أجننت!!؟ ماذا تريدان أن تفعلين!!؟ لا بد أن تعكفي طوال حياتك على تربية صغارك، وليذبلن شبابك في أودية الحداد، وتقدمين بذلك الدليل على أصالتك وعظم تضحيتك، وليكن كل ذلك رصيذاً لك عند أولادك تظلمين تطالبينهم به طوال العمر، وتؤمنين به عليهم إذا اقتضى الأمر.

عُقِدْ وَبَدَعْ وَجَهَالَاتٌ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ.

يُحَرِّمَنَّ الْحَلَالَ وَيُحَلِّلَنَّ الْحَرَامَ كَمَا تَهْوَى نَفْسُهُنَّ.

ثم يظلمن بصرخن من القيود التي كان لهن الفضل الأكبر في عقدها، ويبصر الجاهلون حالهن فينسبون كل تلك المصائب إلى الإسلام وهو منها براء.

يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه (قضايا المرأة): "إن من غرائب السلوك الإنساني أنه هو الذي يصنع لنفسه القيود المؤذية، وهو الذي يخلق الخرافة ثم يقدها!!".

نعم فالذنب الأكبر يقع على المرأة نفسها في تكييلها لنفسها بتلك القيود.

حقيقى أن المرأة فى مجتمعنا تعيش فى سجن كبير، ولكن المرأة نفسها هى السجن أيضاً.. ومعظم القيود التى تكبل المرأة وتردعها عن التمرد على كل الأوضاع الظالمة التى تعاني منها.. معظم هذه القيود تضعها النساء حولها.. أو بمعنى أدق فإن السبب فى هذه القيود هو رضوخ المرأة لطريقة التفكير التى تفكر بها النساء اللاتى حولها وخصوصاً العجائز منهن، ولا حل للمرأة للخروج من أسر هذه الأغلال والقيود التى تحرق عمرها فى المظالم إلا أن تنزع عن رأسها تلك المفاهيم الجاهلية التى يفكر بها هؤلاء النساء وتضعها تحت أقدامها، وتجعل من الإسلام والإسلام فقط مصدرها الوحيد فى تلقى الحلال والحرام والصواب والخطأ.

إن الله حررتنا بنعمة الإسلام من أسر مظالم العبودية فلماذا نختار بأنفسنا الرضوخ فى عبودية الجهل والتقاليد والخرافات!!؟.

**مفهوم النجاح
بين الإنسان الرباني
والإنسان النفعي**

مفهوم النجاح

بين الإنسان الرباني والإنسان النفعي

مما لا شك فيه أن النجاح غاية يسعى إليها الجميع في صراعهم الإنساني. ولذلك فمفهوم النجاح مفهوم هام للغاية وله أثره الخطير على الواقع الاجتماعي. إننا إذا كنا نسعى جاهدين إلى النجاح فلا بد أن نتساءل أي نجاح هذا الذي نرتجيه؟ إن الموقف الإسلامي يعني أن أي نجاح في الوجود لا يصطبغ بصبغة الله فهو شيء فارغ لا قيمة له.

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً) (البقرة: ١٣٨).

ولكن النفعيين الذين صاروا الآن يسيطرون على مفاهيم المجتمع قد رسّخوا في الأذهان مفهومًا للنجاح غاية في الإضلال والقسوة، ولكنه أيضًا غاية في الإقناع لغير المتعمقين في الأمور. لقد ربطوا بين مفهوم النجاح وبين تحقيق النتائج، (وهي قاعدة محورية في الفكر البرجماتي النفعي)، ثم حصروا هذه النتائج في النتائج والآثار المادية إن لم تكن النقدية فقط لا غير. لقد حصر البرجماتيون الحقائق في دائرة المنافع والمصالح المادية، وتحت ضغط الحاجة والحرمان من جهة، وابتغاث الرغبات والإغراء بتحقيقها من جهة أخرى، استطاعوا أن يشحذوا طاقات الناس نحو شيء واحد هو العمل على تحقيق هذه المنافع والمصالح بأية طريقة كانت، ومن هنا كانت كل هذه المفاهيم.

فعند أي جدال يقوم حول مدى نجاح شخص ما فإن السؤال الأساس الذي يطرح هو، ماذا حقق هذا الشخص من نتائج لكي يمكن وصفه بأنه شخص ناجح؟ بل كثيرًا ما يأتي السؤال المطروح بهذه الصيغة الأكثر حدة، هي: ما الذي حققه هذا الشخص من النقود والثروة لكي نصفه بأنه شخص ناجح؟

ومن نفس هذا المنطلق البرجماتى المرتبط بالنتائج يستمدون معيارهم فى الحكم على كل الصراعات فى الحياة.. فالشخص الوحيد الذى يمكن وصفه بالنجاح انطلاقاً من هذا المفهوم هو فقط الشخص الذى يستطيع أن يكسب الصراع الذى يدخل فيه، أو حتى الصراع الذى يُفرضُ عليه، بل كثيراً ما لا يعترفون بذلك المكسب إلا لو كان مكسباً كاملاً فقط.

إن الإسلام هو مرجعنا الوحيد الذى نستمد منه معاييرنا فى الحكم على الأشياء.

فالحقيقى ليس إلا ما يعتبره الإسلام أنه حقيقى.

والنافع ليس إلا ما يعتبره الإسلام أنه نافع.

وبادئ ذى بدء فالإسلام لا يعطى أية أهمية أو احترام للمصالح والمنافع المادية إلا فى حدود القدر الذى يلبى الحاجات الأساسية الحقيقية للإنسان، (أى: ما يسمى فى عرفنا الاجتماعى بالسُّرِّ)، ويرى أن ما يزيد عن ذلك من حطام الدنيا هو قدر من عند الله لا يجب أن يتصارع الناس عليه، أما إذا ضحى الإنسان بالقواعد الشرعية من أجل تحقيق هذه الأشياء فإنه يكون بذلك قد سقط فى مصيدة الشيطان التى قد تؤدى به إلى الكفر فى نهاية المطاف.

وفى الحقيقة فإن لكل إنسان طريقته الخاصة فى تحديد الهدف الذى يسعى إلى تحقيقه ما دام لا يصطدم ذلك مع القواعد الشرعية فى الإسلام، لكن للمجتمع عادةً ما يحدد للأشخاص أهدافاً معينة يفرض عليهم العمل على تحقيقها، ويصفهم بالشذوذ أو الفشل إذا اتجهوا إلى أهداف غيرها، ولذلك يجب أن يتحرر الإنسان بالكامل عند تحديد أهدافه من المفاهيم الشائعة للمجتمع التى تعمل على صَبِّ البشر فى قوالب معينة مُعدَّة سلفاً.. هذا من حيث تحديد الهدف.. أما من حيث النجاح فى العمل على تحقيقها فالإسلام له معياره الخاص فى ذلك والذى يختلف عن المعيار البرجماتى الذى لا يتعلق إلا بالنتيجة.

إننا إذا أردنا أن نحدد معياراً لمفهوم الإسلام فَلنستبصر بما وضعه الإسلام لمفهوم العمل الصالح.

إن العمل الصالح هو العمل الذى يتغى غاية صالحة يرضى عنها الله، وهو يتعلق بالإرادة والفعل، أما النتيجة فإنها أمر لا يتعلق بإرادة الإنسان فقط وصلاح عمله، وإنما يتعلق أساساً بالمشيئة الإلهية لوجودها.

هَبْ أَنْ رَجُلًا نَوَى أَنْ يَحُجَّ واجتمعت إرادته على ذلك وسعى إليه بالمسال والزياد والراحلة، وفي منتصف الطريق مثلاً حال بينه وبين غايته حائل أرادته المشيئة الإلهية.. أفلا يكون عمله هذا عملاً صالحاً يثاب عليه؟!.

بلى إن الإسلام يقرر في موقف كهذا أن ثواب الحج يُحَسَّبُ لذلك الرجل.
﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾
(الإسراء: ١٩).

وفي الحديث الشريف: "من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة"^(١).

والحقيقة الواقعية للنجاح في الصراع الإنساني لا بد وأن تتعلق بمدى صحة التصرف الذي يسلكه الشخص الداخل في هذا الصراع، ومدى حرصه على بذل ما في وسعه لكي يصل إلى هدفه، مع العلم بأن معايير الحكم على صحة التصرفات يجب أن تتحرر من المفاهيم التقليدية الشائعة لها، ويجب أن تضع في الاعتبار الظروف المحيطة بكل صراع بدقة، فإذا اتخذ الشخص الشروط الواجبة للنجاح في الصراع الداخل فيه وعمل على تحقيقها فهو شخص ناجح بغض النظر عن النتائج التي تتحقق نتيجة سلوكه في هذا الصراع.

بل ويقاس مدى نجاحه بمدى ما حققه في سلوكه من تصرف مبدع ومجهود كبير.

والقول بغير ذلك وربط كل شيء بالنتيجة الحاصلة هو تغميض عن حقيقة ما يحدث في الواقع من تدخل عوامل خارجية عن الإرادة - وعن تقديراتها - تقطع العلاقة ما بين السلوك المتخذ والنتيجة المرجوة منه.

فليس حقيقياً ما يذهب إليه بعض الأجلاف من الماديين الجهلاء من أن النتيجة السيئة تعبر عن السلوك الخاطيء، هذا على فرض اتفاقنا على المعيار الذي يحكم به على هذه النتيجة التي من الممكن أن نتابعها كل يوم بوعى جاد؛ لأن التجارب الواقعية تخبرنا أنه قد يحدث في بعض الأمور أن تنقطع العلاقة ما بين التصرف السليم والنتيجة الحسنة، وأن

(١) السنن الكبرى للنسائي ٣٩٦/٤ حديث ٧٦٧٠، وفي الأوسط للطبراني ٢٦٠/٤، وفي المعجم الكبير ١٦١/١٢ حديث ١٢٧٦٠، وسنن الدارمي ٤١٣/٢ حديث ٢٧٨٦، وصحيح ابن حبان ١٠٧/٢ حديث ٣٨٤، وكذا في صحيح مسلم ٨٢/١ حديث ٣٥٤، وفي مسند أحمد بن حنبل ٣١٥/٤ حديث ٢٥١٩.

هناك بعض النتائج الحسنة قد تنتج - نتيجة تدخل عوامل خارجية عن الإرادة وتقديرها -
عن تصرفات عاطفة، وهناك بعض النتائج السيئة قد تنتج - نتيجة تدخل عوامل خارجية
عن الإرادة وتقديرها - عن تصرفات سليمة.

هنا يتضح التطابق بين الحقيقة الدينية والحقيقة الواقعية.

فالحقيقة الدينية تقرر أن الإرادة الإنسانية على الرغم من أنها حرة من حيث اختيارها لما
تفعل، ولكنها مقيدة بالإرادة الإلهية من حيث تحقيق النتائج.

والواقع يقرر أنه ليس كل ما يتمناه المرء يبلغه حتى ولو سعى إلى هذا الذي يتمناه بكل
الخطوات المؤدية إليه؛ لأنه قد تتدخل عوامل أخرى ليس لها علاقة بإرادة الإنسان
وتقديرها تحول بين سعيه وبين تحقيق الغاية المرجوة منه.. هذه العوامل يقف أمامها
الماديون حائرين، أما المؤمنون فيؤمنون جيدًا أنها بعض مظاهر المشيئة الإلهية؛ ولذلك فهم
يطلبون العون من الله دائمًا على أن يوفقهم في تحقيق أهدافهم.

وانطلاقًا من هذه الحقيقة الدينية الواقعية فإن المنطق الإيماني الواقعي في نفس الوقت
يستوجب علينا أن نطبق نفس مفهوم العمل الصالح في الإسلام على مفهوم النجاح في
الإسلام أيضًا.

وبذلك يرتبط مفهوم النجاح في الإسلام بما يتعلق بالإرادة والفعل وليس بتحقيق
النتائج، وبذلك يكون الشخص الناجح هو الشخص الذي يتصرف التصرف السليم في
صراعه مع الحياة للوصول إلى هدفه (بالمعايير الناضجة المتحررة من المفاهيم التقليدية في
الحكم على التصرفات، والتي تضع في اعتبارها الظروف المحيطة بكل صراع بدقة)، والذي
يحرص على بذل ما في وسعه لكي يصل إلى هذا الهدف.. بغض النظر عن النتائج التي
تتحقق عن سلوكه هذا.

بل ويقاس مدى نجاحه بمدى ما حققه في سلوكه هذا من تصرف مبدع ومجهود كبير
بغض النظر عن النتائج أيضًا.

قيم المواجهة

الواقعية الإصلاحية في مواجهة

الواقعية الاستسلامية

إن الإسلام يقشع الضباب والغيوم عن بصيرة الإنسان ويحرره من المخاوف والأوهام والعُقَدِ والمعتقدات الباطلة التي يكبله بها مجتمعه لكي يرى الحقائق كما هي وبلا خداع.

ولذلك فالمسلم الحقيقي هو المسلم الواقعي، ولكن بأي مفهوم للواقعية يا ترى؟.

إنها الواقعية التي تتعامل مع الواقع الحقيقي الذي لا تتدخل فيه بعض الأباطيل لمجرد أن الناس قد اعتادوا اعتبارها جزءاً من الواقع.

إنها الواقعية الخالية من العُقَدِ الموهومة التي تؤدي إلى التخاذل الدائم واعتبار ذلك واقعية.

إنها الواقعية الخالية من الخوف الدائم من الصراع مع الباطل، ومن ثم إلى الاستسلام له، واعتباره منذ البدء صراعاً مع الأمر الواقع الذي يفرض نفسه على الجميع، بل إنها الواقعية التي لا تستسلم للباطل حتى ولو كان قد فرض نفسه وصار أمراً واقعاً بالفعل ما دامت هناك إمكانات موجودة لتغييره.

إن الإسلام ينير بصيرة الإنسان حتى تخترق الضباب والغيوم وكل ما يحول بينه وبين حقائق الواقع.

يقول الأستاذ سيد قطب: "والدين لا يوجهه الواقع أياً كان ليقْرَهُ ويبحث له عن سند منه وعن حكم شرعي يعلقه عليه كاللافتة المستعارة، إنما يواجه الواقع لِيَزِنَهُ بميزانه فيقرر منه ما يُقررُه ويلغى منه ما يلغى، وينشئ واقعاً غيره إن كان لا يرتضيه، وواقعه الذي ينشئه هو الواقع"^(١).

ولكن ما زال هناك الكثير من المغفلين والضعفاء لا يعقلون الواقعية إلا على أنها الاستسلام للأمر الواقع، وكثيراً ما لا يكون هذا الأمر الواقع الذي يستسلمون له قد تمَّ

(١) معالم الطريق، ص: ١٠٦.

بالفعل، ولكنهم أرادوا أن يريحوا أنفسهم من عناء الصراع معه بمجرد ظهور بعض ملامح تفرقه عليهم في بعض الأمور.

بل وكثيراً ما يكون هذا الأمر الواقع الذي يستسلمون له قد زالت أهم ركائزه وصار معرضاً للاختيار ومن ثم للزوال في أي وقت، ولكنهم يظنون مستسلمين له على أنه الأمر الواقع الذي يفرض نفسه على الجميع.

إن الواقعية الحقيقية هي أن نعي أن الواقع الذي زالت أهم ركائزه وصار عرضة للاختيار يكون من الجهل والغباء بل والجنون أيضاً الحديث عن الاستسلام له على أنه أمر واقع، بل يكون الأمر الأكثر معقولية هو الاستسلام للواقع الجديد الذي تظهر ملامحه في العوامل التي أدت إلى زوال الواقع الراهن، والعمل على التعجيل بذلك الواقع الجديد.

وربما يكون ذلك الواقع الجديد المرتقب يفرض نفسه على الواقع الراهن المتصدع بما يكمن فيه من إمكانات فعالة وحضور قوى، ولذلك يصير هو ذاته أمراً واقعاً بالفعل يجب الاستسلام له.

فهناك فرق كبير بين الواقعية الاستسلامية والواقعية الإصلاحية.

فالواقعية الاستسلامية هي أن ترضى بالأمر الواقع كما هو، وتشعر بالعجز أمامه، وتستسلم لما يريد منك، بل وتستسلم لتياره أينما دفعك ذلك التيار.

وهؤلاء الاستسلاميون الذين يبررون ضعفهم وتخاذلهم بالواقعية يسلمون أنفسهم للظروف تسليماً مخزياً، فحتى لو كانت تلك الظروف قد دفعتهم لأن تنزلق أقدامهم في إحدى المنحدرات فإنك تجدهم يستسلمون تماماً لذلك الانزلاق، حتى ولو توفرت لهم إمكانية جديدة لمقاومته أو للتوقف فيه عند نقطة ما يستطيعون منها الانطلاق والعودة إلى ما كانوا عليه فيما قبل.

ولكن ما ارتضوه من استسلام مخز جعلهم لا يريدون بذل أي قدر من المحاولة، وكأنهم يجدون راحتهم في الانزلاق تماماً إلى الهاوية التي ينحدرون إليها.

إنها الواقعية التي تؤمن بالله وقدرته ومشيته وأقداره، التي تجعل كل شيء عرضة للتغيير بسنن الله في الأرض، التي تجعل الأيام دولا بين الناس.

وفي الحقيقة فإن كل واقع مهما بلغت سطوته فهو يحمل في داخله عوامل تغييره،

والمؤمن القوى ذو البصيرة النافذة هو الذى يستطيع أن يدرك هذه العوامل، ويدرك كيفية استغلالها بالطريقة التى تجعل منها منطلقات للتغيير إلى الواقع الآخر الذى يرتبط بالمثل الإيمانية المنشودة.

إن الأمر يمر بالإنسان المؤمن على ثلاثة مراحل:

* مرحلة الرعى القوى والبصيرة النافذة.

* ثم التحدى والمحاولة.

* ثم التحمل والصمود.

فالواقع الداهم الذى ينصح الاستسلاميون بالانحناء لعاصفته يحمل فى الغالب كما قلت عوامل تغييره، ولكن استيعاب ذلك يحتاج إلى الوعى القوى بما يحيط به من ظروف ومسا يحمله من إمكانات حقيقية، والبصيرة النافذة التى تستطيع اكتناه عوامل التغيير تلك والتفرقة بينها وبين أمانى السراب والأوهام.

وعلى فرض أننا أمام واقع قوى يفرض نفسه، ولكنه واقع ظالم لعين ما أنزل الله به من سلطان، فهل نقف أمامه مكتوفى الأيدي ونحن نبصر أعمارنا تتطاير كالدخان من حريق شروره!!؟

إن هذا هو الجنون ذاته.

إن الحياة لو امتدت فى أروقة اليأس والعدم والكآبة، وصارت كالعيش فى تابوت متحرك، أفلا يكون الموت الناقل إلى رحمة الله خيراً منها!!؟

وأى عقل هذا يدعيه الانهزاميون لكى يبرروا به استسلامهم المخزى لواقع مثل هذا.

إنه إذا لم يكن أمامك بديل سوى أن تعيش فى الحياة بلا حياة، فإن الموقف العاقل الوحيد هو أن تتحدى ذلك الواقع الذى يفرض عليك أن تعيش هذه الحياة مهما كان ثمن هذا التحدى؛ لأنه على أى حال سيكون أقل كثيراً مما تدفعه بالفعل باستسلامك له، وهل هناك خسارة أكبر من أن يخسر الإنسان كل ما هو جوهري فى حياته.

إن الذين يشترون آخرتهم بدنياهم يخسرون الدنيا ويكسبون الآخرة وما أربحها من صفقة، أما الذين يرضون الواقع الظالم لهم ثم يستمرعونهم ويدافعون عنه ويناصرونه فلأنهم لا

يُخسرون دلياهم فقط وإنما آخرتهم أيضًا.

ثم تأتي مرحلة التحدي والمحاولة، وهي تعني أن الأمر ليس لَهْرًا، وأنتك تتحدى تيسارًا جارفًا؛ ولذلك فعليك أن تأخذ بشروط ذلك التحدي، وأن تقبل نتائجه وما يفرضه عليك من توضيحات، وعليك أن تستغل عوامل التغيير هذه إلى أقصى درجة ممكنة، وأن تبصر دائمًا ما هي المستجدات التي تحدث لكي تستغلها أفضل استغلال، فلا أحد يدري ماذا من الممكن أن يحمل القدر من مستحدثات بشكل دائم، بل وعليك أن تحاول أن تصطنع بنفسك مستحدثات للتغيير فمحاولتك هذه وما ينتج عنها هي في ذاتها قَدْرٌ من أقدار الله.

وليس شرطًا أن تنجح مائة في المائة، إن أى نسبة من النجاح في هذه المواقف العسيرة أمر عظيم، وحتى ولو لم تأتِ بأية نسبة من النجاح.

فالمحاولة نفسها نجاح.

وهي أمر واجب في ذاته.

ووجوب المحاولة يكون حاسمًا عندما لا يكون للإنسان طريق أمامه غير الضياع.

فإما أن يحاول وإما أن يقبل واقعًا مدمرًا قاتلاً.

وعندما لا يكون للإنسان بديل سوى الموت ذاته سواء كان ماديًا أو معنويًا فإن وجوب المقاومة والمحاولة يكون هو الأمر المنطقي الوحيد في هذا الوجود.

ثم تأتي مرحلة التحمل والصمود والصبر والمثابرة.

ولا بد من إعداد الزاد للدخول في هذه المرحلة، وهو أمر يظفر بكل ما تحمله النفس المؤمنة من زهد وصبر وإصرار على الهدف ومثابرة على تحمل المكاره والمشاق، وعماد الأمر كله يتحدد في مدى إصرارها على إحقاق الحقوق التي أحقها الله في هذا الوجود، والرضا بما قسمه الله لها في هذا الصراع.

إن مطاولة الصراع تغري النفس بالوهن وتُجلى النفوس الكبار.

وبين هذه وذاك لحظة ضعف كبيرة تُسقطُ أعلى النفوس من أعلى القمم إلى أودية مهاوى الانهيار.

وأصعب لحظة في الوجود هي تلك اللحظة.

نعم إن أصعب لحظة في الوجود هي تلك اللحظة التي تقع بين قمة الصمود وبداية الانهيار.
لكن الربانيين الذين يتعلقون بالله ويعتصمون به لا تسقطهم تلك اللحظة، الذين
يتوكلون عليه ويوقنون بما أعد لهم من ثواب الآخرة لا تسقطهم تلك اللحظة.
الذين يصرون على الحياة من أجل إعلاء كلمة الله وتحقيق عدله ويرتضون في سبيل
ذلك ما قسمه الله لهم في هذه الدنيا لا تسقطهم تلك اللحظة.
ولكن أفق أيها الإنسان.

من قال لك إن الله يتركك وحدك في مثل هذه المواقف!!؟

من قال لك إن الحسابات الأرضية فقط هي التي تحكم مثل هذه الأمور.

من قال لك إن الإرادة الإلهية لن تتدخل، وإن فرج الله لن يأتي بما ليس في الحسابان.

إن عليك فقط أن تُعد للأمر عُدته، وأن تجعل تقوى الله هي زادك في هذا الوجود، أما
ما سيكون وما سيصير فهو أمرٌ بيد الله وحده.

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۗ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) (الطلاق: ٢-٣).

العقل والجنون والشجاعة والتهور

بادئ ذي بدء فإنه يجب التمييز بين الذكاء والعقل وذلك لاعتقاد الكثير من الناس أنهما يمثلان شيئاً واحداً، وهو ما يؤدي إلى الخلط في كثير من الأمور والوقوع في سلسلة من الأحكام الخاطئة في الحكم على الأشخاص وتصرفاتهم، كالحكم على شخص ما بالغباء لأنه تصرف تصرفاً ما يتسم بالتهور أو عدم التعقل، أو الحكم على شخص ما بالذكاء لأنه تصرف تصرفاً يتصف بالعقل.

وهكذا فالشخص الذكي لدى هؤلاء هو الشخص العاقل والشخص الغبي هو الشخص قليل العقل.

وفي الحقيقة فإن الأمرين مختلفان تماماً.

فالذكاء أمر يتعلق بالقدرات الإبداعية لدى الشخص، وهو أمر وراثي لا إرادة فيه^(١)، وإن يكن تنشيطه بالاجتهاد الدائم أمراً بالغ الأهمية.

أما العقل فهو أمر يتعلق بقدرة الشخص على التحكم والتوجيه في تصرفاته، ولا يستدعي هذا امتلاكه لقدر غير محدود من الذكاء، وإنما يكفي لامتلاكه أن يتوافر فيه الذكاء العادي، مع ملاحظة أنه إذا توفر للشخص امتلاكه للذكاء الكبير المتفوق والعقل القوي المتحكم لكان قوة عظيمة ينبغي أن يعمل لها ألف حساب.

وينبغي على ما سبق أنه إذا كان الشخص ذكياً فإن ذلك لا يستدعي أن يكون عاقلاً أيضاً، فقد يكون عبقرياً ومع ذلك فإنه لا يبالي بتوجيه تصرفاته، أو التحكم في سلوكه، أو أنه قد يتخذ في حياته مساراً منحرفاً أو شاذاً لا يرتضيه أحد من العقلاء، ومع ذلك يظل كما هو شخصاً عبقرياً، مع أنه في الوقت نفسه قليل العقل.

(١) راجع الذكاء الإنسان: د. محمد طه.

وعلم النفس العام: د. يوسف كرم.

وقد يكون الشخص عاقلاً، (أى: مثزناً ومتحكماً في تصرفاته)، ولكنه مع ذلك متوسط الذكاء لا يستطيع التعمق في الكثير من الأمور التي تتطلب قدرات خاصة من الذكاء لا تتوفر له، كما أنه لا يستطيع ابتداع أمور جديدة لها جدوى يُعتدُّ بها.

ولكن الأمر الأكثر خطورة في حياتنا هو المعيار الذي ينطلق منه حكمنا على تصرف ما من التصرفات أنه تصرف عاقل، فالتصور الشائع للتصرف العاقل هو أنه الذي يرتبط دائماً بالهدوء وعدم الانفعال وعدم المغامرة والتعرض للمخاطر.

أما في عرف التقاليد فإن التصرف العاقل هو التصرف المعتاد الذي ينتظره المجتمع من شخص ما في موقف ما من المواقف، فإذا خالف هذا الشخص ذلك التصرف المعتاد كان تصرفه غير عاقل.

أما في حكم المفاهيم النفعية التي صارت تشكل العقول الآن فإن التصرف العاقل هو التصرف الذي يأتي على صاحبه بأكبر قدر من المنافع المادية الممكنة ولا يعرضه لأي من الخسائر سواء المادية منها أو غير المادية.

والحصيلة الناتجة من التصورات التي تنطلق من المعايير السابقة عن التصرف العاقل تجعله في الحقيقة أبعد ما يكون عن العقل.

فليس من المعقول أن يرتبط التصرف العاقل بالهدوء وعدم الانفعال وعدم المغامرة وعدم التعرض للمخاطر إذا كان الموقف المتعلق به يقتضى ذلك إلا إذا ارتبط العقل عند هؤلاء بالبلادة والبرود والجبن والضعف والتخاذل والسلبية.

بل إنه قد يكون الانفعال والعصبية دليلاً على العقل وليس العكس؛ لأنه قد يكون تعبيراً عن التمرد على أوضاع قاسية طاغية، ويكون مقابلتها بالرضا والهدوء هو درب من الجنون ذاته، ولكن ماذا تفعل إذا كانت المفاهيم الشائعة عندنا قد جعلت العقل مرتبطاً بالهدوء؟

وليس من المعقول أيضاً أن يرتبط التصرف العاقل بالتصرف المعتاد للشخص العادي إلا إذا ارتبط مفهوم العقل لدى هؤلاء بمحدودية الذكاء، وفقدان القدرة على الإبداع، وحمل النفس على الانسياق وراء القطيع أينما صار به مالكوه.

وليس من المعقول أيضاً أن يرتبط التصرف العاقل بتحقيق أكبر قدر من المكاسب المادية، وعدم تعريض النفس للتضحية بشيء من الأشياء إلا إذا ارتبط مفهوم العقل لدى

هؤلاء بالانتهازية والأنانية والإلحاد والكفر بالغيبيات والحياة الأخرى والثواب والعقاب.
أى أننا إذا انسقنا وراء المفاهيم الشائعة عن الإنسان العاقل والتصرف العاقل لوجدنا أن
العاقلين في مجتمعاتنا هم أكثر الناس سلبية أو نمطية أو انتهازية.

ومن الطبيعي أن تكون هذه المفاهيم هي الأداة التي يتم بها تشكيل العقول النامية
للأجيال الصاعدة؛ لأن هذه التركيبة المشوّهة بما تحمله من جهل وتخلف ورجعية تكون
القدوة التي يتمثلونها في حياتهم أو يُدعَوْنَ إلى تمثُلها.

ولنا أن تساءل بعد ذلك عما يمكن أن ينتظره مجتمعنا من تقدم أو تحرر من أغلال التبعية
التي تستعبدنا إذا كان العقلاء عندنا هم الذين تصنع عقولهم بمثل هذا التشكيل المشوّه؟

وكيف من الممكن استنهاض المسلمين إذا كانت تتحكم في سلوكهم أمثال تلك المعايير؟
والمنظور الإسلامى للسلوك العاقل الرشيد يرتبط باقتضاء الصراط المستقيم وعدم
الانحراف أو الشذوذ عنه.

ومناط المسؤولية الإنسانية (الأمانة، أى: حرية الإرادة) فى الإسلام هى التى يتمحور
عليها وجود الإنسان، ويمدى ارتباط العمل الناتج عن هذه المسؤولية (الفعل أو اللافعل)
باقتضاء الصراط المستقيم يمكن إطلاق وصف السلوك العاقل عليه.

أى أن السلوك العاقل فى الإسلام لا يرتبط فقط بالامتناع عن فعل شىء وإنما يرتبط
أيضاً فى الأساس بالشُّقُّ الإيجابى وهو وجوب القيام بالفعل إذا اقتضى الأمر ذلك.

ولكن هكذا انقسم الوعى الإسلامى وَرَكَنَ الخامدون إلى الشق السلبى فقط وهو
الامتناع عن الفعل لكى يقتربوا بهذا المفهوم الساذج من واقعهم السلبى الذى ينطلقون منه
فى تقدير السلوك العاقل الرشيد.

وانطلاقاً مما سبق فإنه إذا كان العقل فى بعض المواقف يقتضى الامتناع عن فعل سلوك
معين فإن العقل أيضاً فى مواقف أخرى يقتضى اتخاذ السلوك الإيجابى بفعل ما يجب أن
يفعله الإنسان.

والحكاية ليس لها علاقة على الإطلاق بأى نوع من الهدوء أو الانفعال والتوتر؛ لأنه إذا
كان حدوث الانفعال فى موقف لا يحتمله له دلالة لا عقلانية فإن إبداء الهدوء أيضاً فى
بعض المواقف التى تقتضى الانفعال له دلالة لا عقلانية.

كما أن الحكاية ليس لها علاقة بالمخاطرة أو عدمها، فمن قال إن عدم المخاطرة تصرف عاقل رشيد، فإن هذا لا يمكن أن يكون كذلك إلا عند الأمم المتخاذلة المستكينة المستعبدة المُستذلة؛ لأن عظام الأمور في التاريخ كله قامت على المخاطرة وليس على الحسابات الأكيدة المأمونة النتائج.

إنه إذا كان التغيير أو الإصلاح أو التحرر أو الخروج من توابع الواقع المهين الذي يُفرضُ على الإنسان يقتضى المخاطرة فعند ذلك لا تكون المخاطرة هي فقط التصرف العاقل الرشيد، بل إن الانتكاس والتخاذل عنها يكون تصرفاً لا عقلاً على الإطلاق.

أما إذا كانت المخاطرة هي الحل الوحيد لانطلاق الإنسان من أسر واقع المرير فعند ذلك يكون عدم المخاطرة هو الجنون ذاته.

فالعقل في المخاطرة إذا كان الأمر يتطلب المخاطرة.

والعقل في اجتنابها إذا كان الأمر يتطلب اجتنابها.

وكما أن المخاطرة في الأمور التي لا تقتضيها تهور ولا عقلانية.

فإن عدم المخاطرة في الأمور التي تقتضيها تخاذل ولا عقلانية.

ولا شيء في هذا الوجود لا يتعلق بالخسائر.

إن أمر الدنيا كله يقوم على الموازنة بين المكاسب والخسائر.

أما التصور الساذج بأن العقلانية هي البعد الدائم عن الخسائر المحتملة بالبعد عن المواقف الإيجابية فهو مجرد وهم من الأوهام.

فقد لا تفعل شيئاً في موقف من المواقف نتيجة الخوف من الخسائر ويكون واقع الحال أنك تخسر أكثر كثيراً من عدم فعلك لذلك الشيء، ولكن السلبية التي تحكم تصرفاتنا تشحذ نفوسنا عادةً بتضخيم الخسائر المنتظرة من تصرفاتنا، وتخدّرنا عن الوعي بالخسائر الجسيمة التي نعاني منها، والتي سوف تتضخم أكثر إذا لم نتخذ السلوك الإيجابي الذي يقتضيه موقف ما من المواقف.

فكونك تخسر من فعل شيء فإن ذلك لا يجب أن يدعوك إلى عدم فعله حتى ولو كانت الخسارة كبيرة ما دامت الخسائر الناجمة عن عدم فعلك إياه أكبر كثيراً.

ولذلك فهنا تبرز أهمية الوعي.. الوعي بمفهومه الشامل والقائم على التصور الإيمان المرتكن على الآخرة، الذى يتسع للحقائق الدينية الموجهة للسلوك والحقائق الواقعية التى يراد أن يتخذ هذا السلوك إزاءها.

الوعي المتحرر من الخرافات والتصورات الموهومة والمفاهيم الدينية الزائفة ومعايير القيم السلبية والموروثة والعقد الباطلة للتقاليد المشاعة وضلالات المفاهيم السائدة.

لأن الإنسان الذى يُقدم على اتخاذ موقف مصرى له دوره الحاسم فى توجيه حياته يقتضى المخاطرة، فإن ذلك يتطلب منه الوعي الكافى الذى يزن به المكاسب والخسائر من هذا الموقف، فكيف من الممكن أن يمتلك الإنسان هذا الوعي إذا كان مكبلاً بكل المفاهيم الباطلة!!؟

كيف من الممكن أن يوازن بين المكاسب والخسائر إذا كانت المعايير التى يحتكم إليها فى ذلك هى معايير باطلة ما أنزل الله بها من سلطان!!؟

كيف من الممكن أن نوازن بين المكاسب والخسائر إذا كانت المعايير التى نحتكم إليها تجعل المكاسب خسائر والخسائر مكاسب!!؟

كيف من الممكن أن نوازن بين ذلك إذا كانت المعايير التى نحتكم إليها تشحذ نفوسنا فى تضخيم الخسائر المنتظرة من اتخاذ السلوك وتخديرنا بالتهوين من الخسائر التى نعاني منها بالفعل والى من الطبيعى أن تزداد تفاقماً إذا لم نتخذ السلوك المنتظر!!؟

لا بد من امتلاك الوعي الإيمانى الذى يُفرق بين الخسائر الموقوتة والخسائر الأبدية والذى لا يعتمد فقط على موازين الدنيا، فحساب المكاسب والخسائر من منظور الدنيا.. يختلف تماماً عن حسابه من منظور الدنيا والآخرة.. يختلف عن حسابه من منظور تقلب الآخرة على الدنيا.

أيها الإنسان الذى يحترق عمره فى توابيت العرف والتقاليد والجهل والخرافة والجبن والانكسار والسلبية.

أما آن لك أن تنقذ نفسك وتحطم تابوتك؟؟؟...

أما زلت تتردد فى ما هو القرار الصحيح!!؟

سَلْ نَفْسَكَ أَوْلَى:

هل أنت تحررت من المفاهيم البالية من الأعراف والتقاليد التي سَجَنَكَ الناس فيها؟
هل أنت تمتلك الوعي الإيمان الصادق الذي يجعل الدنيا منطلقاً للحياة الخالدة في الآخرة؟

هل أنت تمتلك التقدير الدقيق للمكاسب والخسائر والموازنة بينها من منظور تقدم الآخرة على الدنيا؟

هل أنت تمتلك الشجاعة اللازمة لاتخاذ قرارك وتحمُّلك نتائجَه أيا كانت هذه النتائج؟

سَلْ نَفْسَكَ هَذِهِ الْأَسْئَلَةَ أَوْلَى ثُمَّ:

أَتَّخِذُ قَرَارَكَ.

الإيجابية والسلبية

في الحقيقة إنني قد استهدفت عند كتابتي لهذا الكتاب أن يتدفق تيار الإيجابية في كل صفحاته، إلا أنني قد رأيت أن الأمر يقتضى التركيز في دفع هذا التيار في فصل خاص به تبياناً للفكرة وإبرازاً لها.

ولهذا أقول إن العلاقة بين الإيجابية والإسلام علاقة عضوية لا يمكن لكل ذى فكر الدهول عنها، فتيار الإيجابية يتدفق في كل عروق الإسلام وفي كل نص من نصوصه وفي كل حدث من أحداثه في تاريخه الأمثل وسيرته العظمى.

فرسالة الإسلام تتمحور أساساً حول العمل.. حول الحركة.. حول الفعل.. (وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) (التوبة: ١٠٥).

ومعيار الإيمان في الإسلام يتحدد أساساً على مدى قدرة الإنسان على مواجهة الخطأ (المنكر) "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فمن لم يستطيع فبلسانه فمن لم يستطيع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"^(١).

ولقد هاجم الإسلام بعنف السلبية المتمثلة في السكوت عن الحق، كما جاء في الحديث الشريف: "السكوت عن الحق شيطان أخرس"^(٢).

وكما جاء في قوله ﷺ: "والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم"^(٣).

(١) سنن البيهقي الكبرى ٩٥/٦، ٩٠/١٠، وسنن ابن ماجه ١٣٣٣/٢ حديث ٤٠١٣، وى صحيح ابن حبان ٥٤١/١ حديث

٣٠٧، وكذا في صحيح مسلم ٥٠/١ حديث ١٨٦.

(٢) انظر: فقه السنة للسيد سابق ٦١/٢.

(٣) انظر: ص: ١٧١، سبق تخريجه.

وكما جاء أيضاً في الحديث النبوي فيما معناه: "لا يقفن أحدكم بموقف يضرب فيه رجل فإن اللعنة تقع على الجميع"^(١).

وجعل الإسلام مجاهدة المنكر ذروة سنام العمل الصالح كما جاء في الحديث "وذروة سنامه الجهاد"^(٢).

وجعل كلمة الحق عند السلطان الجائر قمة الجهاد: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر"^(٣).

بل إن مجرد الصمت والنظر نفسيهما في الأمور التي تستدعي ذلك يتحولان في الإسلام إلى إيجابية متدفقة، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ: (أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها...) ^(٤).

حيث جاء من بين هذه الوصايا التسع: "أن يكون صمتي فكراً ونظمي ذكراً ونظري عبيراً"^(٥).

فالصمت في الإسلام ليس وقتاً يُهدرُ عبثاً، وإنما هو طاقة فكرية ترتقى بالإنسان إلى الله، وقد توتى ثمارها قوة دافعة تدفع هذا العالم أجمع خطوة إيمانية نائرة إلى تعاليم الله.

والنظر في الإسلام ليس وسيلة لتلهيبة النفس بالمشاهدات الجميلة، وليس متفاداً لإيقاظ شهواتها.

إنما النظر وسيلة الإنسان لاستقراء أحداث العالم، واستقراء آيات الله في خلقه وما أبدعه في الوجود من صنائع، والتماس العبر من كل ذلك.

أما الذين يهدرون أعمارهم عبثاً عاكفين على رقعة شطرنج أو كوتشينة أو طاولة فمن غير المعقول أن يكون المنطق الإيماني قد تعمق داخل نفوسهم.

(١) كنز العمال ٣٩٧/٥ حديث ١٣٤١١، ومجمع الزوائد ٤٤٣/٦ حديث ١٠٧١٠، وفي الترمذي والترهيب ٢٠٧/٣ حديث ٣٧٠٥.

(٢) السنن الكبرى للنسائي ٤٢٨/٦ حديث ١١٣٩٤، وفي شرح السنة للبغوي ١٤/١، وفي للمعجم الكبير للطبراني ٥٥/٢٠

حديث ٩٦، وفي سنن ابن ماجه ١٣١٤/٢ حديث ٣٩٧٣، وفي مسند أحمد ابن حنبل ٢٣١/٥ حديث ٢٢٠٦٩.

(٣) السنن الكبرى للنسائي ٤٣٥/٤ حديث ٧٨٣٤، وفي شرح السنة للبغوي ١٧٦/٥، ٢٠٩/٧، وفي سنن الترمذي ٤٧١/٤

حديث ٢١٧٤، وفي سنن ابن ماجه ١٣٢٩/٢ حديث ٤٠١١.

(٤) جامع الأصول من أحاديث الرسول لأبي السعادات ابن الأثير ٩٣١٧/١١، ٩٤٣٢/١، وفي مشكاة المصابيح للتميزي ١٦٢/٣ حديث

٥٣٥٨، باب [التوكل والصبر]، ط. [الكتاب الإسلامي - بيروت، ١٩٨٥ م] تحقيق محمد ناصر الدين الألبان.

(٥) المصدر السابق.

وأى مُطَّلِعٍ على سيرة المسلمين الأوائل يشاهد حركة دعوية من التغيير والمواجهة لكل التحديات القائمة، وانطلاقاً دائماً نحو اقتحام الأهداف التي لم تكن تقف في الأغلب الأعم عند حدود العقل والواقع وتوازنات القوى ومختلف المفاهيم التي يستند عليها السلبيون في تبرير سلبيتهم.

والمستبصر في السير الشخصية للمسلمين الأوائل يستخلص منها هذا السلوك نفسه. إنهم لا يقفون من الدنيا موقف المتفرج أو المُحَايِد أو المستكين الذي يرتضى ما تقذفه له من فضلات سواء على المستوى المادى أو المعنوى، إنما هم الذين كانوا يصنعون الدنيا ويجبرون العالم على متابعة ما يفعلونه بانبهار.

تجلت هذه المواقف الإيجابية في جهادهم للكفار وفي فتوحاتهم ومعاركهم العسكرية غاية التَّحَلَّى، كما تجلَّت أيضاً في حكمهم للشعوب وعدم توانيهم عن إقامة العدل بين أهلها مهما كانت الخسائر.

ها هو عمر رضي الله عنه يُصِرُّ على أن يَقْتَصَّ أعرابي لنفسه من أمير نصراني - كان قد أسلم - لَطْمَةً على وجهه، حتى ولو أدى ذلك إلى أن يرتد هذا الأمير بعد ذلك ويلتحق هو وبعض قومه بأعداء المسلمين من الروم.

أما فيما يتعلق بحياتهم الشخصية فقد كان إذا أراد أحدهم شيئاً أباحه الله لم يقف ينتظر في استكانة واستسلام، بل كان يتقدم نحو ما يريد بثبات وقوة دون التقييد بأى معيار آخر ودون أن يكبل حركته حياءً أو خوف.

عندما أراد عبد الرحمن بن العوف أن يقوم بالتجارة بعد حادثة الهجرة المباركة لم يقف ينتظر المساندة من أحد، وإنما ذهب ليقترحم السوق اقتحاماً وليصبح بعد ذلك واحداً من أغني المسلمين تُقَسَّمُ ثروته من المعادن النفيسة بالفئوس.

وإذا أرادت امرأة الإدلاء برأيها في شأن من شئون المسلمين أمام الرسول ﷺ أو أمام أحد من الخلفاء أبدت رأيها بحرية كاملة دون حرج.

وإذا أعجبت امرأة برجل تقدمت لخطبته لم تجلس تضع يدها تحت خدها أملاً في أن ينتبه لوجودها يوماً ما وهو ما قد لا يحدث أبداً.

والغريب أن هذا العمل لو حدث في واقعنا المعاصر من أحد النساء في بعض مجتمعاتنا

فإنه يُعَدُّ ضرباً من الجنون.

وإذا أراد رجلٌ منهم أن يزوجَ ابنته فإنه لا يجد غضاضةً في أن يعرضَهَا على من يرضاه لها بعلاً من المسلمين^(١).

وامرأة تدفع أولادها الأربعة للاستشهاد في سبيل الله وتتقبل نبأ استشهادهم بكل صلابة بعد أن كانت قد ملأت الدنيا صخباً على موت أخيها في الجاهلية^(٢).

وامرأة تصرخ في وجه ابنها الذي أصابه الوجلُّ من التكيل بجمته بعد موته: "وهل يضير الشاه سلخها بعد ذبحها"^(٣).

وعلماء يجوبون الأرض ارتحالاً للحصول على بضعة أحاديث تناثر من يحملونها في أطراف الأرض^(٤).

حركة..

إقدام..

مواجهة..

اقتحام..

استبسال..

استشهاد..

سواءً على مستوى التحرك الجماعي أو على مستوى السلوك الشخصي.

فالإيجابية كموقف عام هي أن تريد وأن تمضي بكل ثبات وقوة ووعي نحو تحقيق ما تريده، والسلبية هي أن تنتظر أن يحدد لك الآخرون ما يجب أن تريده وأن تنتظر أيضاً اللحظة التي يمنحونك فيها ما أرادوا.

أما السلبية فهي أن يحدد لك المجتمع دورك في الحياة، أو أن تترك الأمر الواقع يحدد لك ذلك.

(١) المقصود عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) المقصود الخنساء الشاعرة رضي الله عنها.

(٣) المقصود أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها.

(٤) المقصود الإمام البخاري وأمثاله رضي الله عنهم.

والإيجابية هي أن تُخضع أنت المجتمع لقبول ما تريد، وأن تعمل على دفع هذا الأمر الواقع من مكانه لإرساء أمر واقع جديد يتفق مع أهدافك أنت.

أما السلبية فهي أن تترك أنت الإمكانيات البسيطة التي تراها متاحة لك تحدد لك ما يمكنك فعله.

والإيجابية هي أن تدفع أنت هذه الإمكانيات البسيطة وتوجهها بالطريقة التي تحاول من خلالها الحصول على ما تريد تحقيقه.

والبعض قد يعتقد أن الإيجابية قد تتمثل في قدرة الإنسان على انتهاز الفرص التي قد تسنح له، ولكن الإيجابية الحقيقية هي ألا ينتظر الإنسان هذه الفرص التي قد تسنح له أو قد لا تسنح، وإنما عليه هو أن يصنع فرصته بنفسه.. عليه هو أن يدفع الظروف إلى الطريق الذي يؤدي إلى صنع فرصته.

الإيجابية هي أن تتقدم ابنة سيدنا شعيب عليه السلام نحو أبيها وتقول له قاصدة سيدنا موسى:

﴿ يَتَأْتِ أَسْتَجِرَّةُ ابْنِ حَمْرٍ مِّنْ أَسْتَجْرَتِ الْقَوِيِّ الْأَمِينِ ﴾ (القصص: ٢٦).

والإيجابية أيضًا أن يتقدم سيدنا شعيب إلى سيدنا موسى (عليهما السلام) قائلاً:

﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ (القصص: ٢٧).

الإيجابية هي أن تتقدم بكل ثبات وقوة ووعي نحو هدفك وتنتزعه انتزاعاً.

والسلبية هي أن تنتظر وتضع يدك تحت خدك تراقب إلى أين سيمضي هدفك هل سيأتي إليك أو لا يأتي ١١٩.

هل هذا يعني أن الإيجابية اندفاع وهور ١١٩

لا.. إن الإيجابية كفعل ينطلق من المنظور الإسلامي داخل إطارين هما: مدى شرعية الفعل ومدى توافقه مع التقدير الواعي للظروف (ويجمع بين الإطارين مفهوم الوعي الإيماني).

فالإيجابية ليست اندفاعاً، وإنما حساب دقيق للأمر، ولكن حساب من منظور شجاع وليس من منظور جبان.

ولذلك فقيام ثورة التقدم الإيجابي يجب أن يخضع لهذا الحساب الدقيق، ولكل أمر ظروفه الخاصة التي تقتضي درجة معينة من القوة لهذا التقدم الإيجابي، وعلى هذا فقد يكون

الاندفاع نفسه موقفاً غاية في الإيجابية في ظروف تقتضى ذلك، بل وقد يكون الترقب للأمر بصبر وحكمة في بعض الظروف الخاصة التي تقتضيه موقفاً غاية في الإيجابية أيضاً، فالحاكم الأساس لهذه الأمور - بعد افتراض شرعيتها - هو مدى التقدير الواعي للظروف المحيطة بكل موقف من المواقف، وأن يكون المنطلق لهذا التقدير هو المنطق الشجاع وليس المنطق الجبان.

والذى نعنيه بالمنطق الشجاع هو أن الإيجابية تتقبل ارتضاء الخسائر في سبيل الحصول على المكاسب الأكبر.

وليس هناك موقف في الوجود لا ينطوى على خسائر: هذا هراء!!.

ولكن منطق السلبين يقصر أنظارهم على الخسائر فقط دون المكاسب، أو يضحّم لهم هذه الخسائر ويحقّر لهم من قيمة المكاسب (كمن يُفَيِّلُ الثَّمْلَةَ وَيَتَمَلُّ الفِيلِ).

ومن أكثر الأشياء التي تردع الناس عن اتخاذ المواقف السليمة توقع الخسائر وعدم التقدير السليم لقيمتها بالنسبة للمكاسب المقابلة لها.

والمنطق الشجاع هو الذى يتجاوز ذلك الخوف من الخسائر المحتملة، أما الوعى الإيجابي الذى أشرنا إليه فهو الذى يستطيع أن يوازن الموازنة الصحيحة بين تلك الخسائر والمكاسب المقابلة لها.

وبذلك يمكن تحقيق الإيجابية المنشودة.

مفهوم التسامح والسماح

السلبية هي أن تعجز عن استرداد ما سلبه الآخرون منك، وتتنازل عن حقوقك، وترضى ظلم الآخرين لك، وتحاول التستر على كل ذلك بادعاء التسامح، وبذلك تختلط المفاهيم، وتُميِّعُ الحقائق، وتنتهكُ المحارم، وتؤكِّلُ الحقوق، ويُلبسُ الحق بالباطل لأزمة طويلة؛ لأن التفرير بتطبيق التسامح في غير موضعه يكون ذريعة للشياطين الإنس والجن لتحقيق مآرهم وبلوغ مطامعهم.

ويرجع ذلك إلى أنه عند اختلاط الحق بالباطل في قضية ما فإن دعوة الطرف الذي أصابه الظلم بترك الأمر جملة على سبيل التسامح تنطوي على تَميِّيعِ الحقائق التي تدور حولها القضية المطروحة أمام الناس.

ويكون ذلك ذريعةً للشياطين للحصول على مواقع جديدة للإضلال في عقول الناس، وفرصةً للأفئدة للاستناد إلى ذلك الباطل الذي لم يُحسَمِ الأمر في شأنه في تسويغ إضلالهم وإلباسهم الحق بالباطل.

كما أن التسامح عن الظلم أو حتى التغاضي عنه ما دام لم يقر الظالم به ولم يتراجع عنه ينطوي في الحقيقة على إقرار للظالم على ظلمه، وتمهيد الأرض لغيره من الظالمين ليعيشوا فيها فسادًا ما داموا لا يُواجهونَ ليس فقط بالعقاب ولكن ولا حتى بمجرد الإدانة، بل قد يكون ذلك مدعاة لاغترار الظالم ذاته بنفسه وبأن ما فعله ليس ظلمًا وفي ذلك شرٌ مستطير.

إن الدعوة إلى التسامح من قبل أن يقرَّ الظالم بظلمه هي دعوة ليست إلى استغفال المظلوم أو المجنى عليه فقط، وإنما هي دعوة إلى استغفال الناس أيضًا.

والإيجابية هي أن تمتلك القدرة على العقاب واسترداد الحقوق، وأن تحصل بالفعل على إقرار الظالم بظلمه، وأن تُحقِّقَ الحقَّ وتُزهقَ الباطلَ، وهنا فقط يمكن الاطمئنان إلى أن رغبتك في التسامح هي رغبة حقيقية وليست ستارًا للعجز والسلبية اللذين قد تصاب بهما

النفس أمام تطاول السنين على ظلم الظالمين، وهنا فقط من الممكن أن تقول: سماح.
ومن الطبيعي أننا لا نهدف بذلك إلى شحن النفوس بالأحقاد وشحنها نحو الانتقام
والأخذ بالثأر - وإن يكن الثأر العادل بيد السلطان العادل أمرًا مشروعًا لا غضاضة فيه -
ولكن ما نقصده هنا هو تربية النفس على الإصرار والقوة والعزيمة والإيجابية وليس تطويعها
للانكسار والسلبية والتخاذل تحت ستار الدعوة إلى التسامح.

فلسفة التغيير في الإسلام

لقد حاولت في هذا الكتاب العمل على دفع القارئ إلى تبني القيم الإيمانية والتسلح بها كقيم مواجهة لمختلف التحديات التي تواجه الإنسان في الواقع المعاش.

ومن هنا فإن تبني هذه القيم يعني تبني قيم تغير حاسمة داخل الإنسان نفسه، ويكون طبيعيًا بالتالي أن يصطدم هذا التغيير في الإنسان مع الواقع المعاش الذي يتناقض مع هذه القيم.

وإن كنا عملنا في هذا الكتاب على بث الحماسة في الكثير من صفحاته من أجل دفع قارئه إلى تبني هذه القيم، فلا يعني ذلك أننا نوافق على أن يتولى القارئ تطبيق قيم التغيير هذه على المجتمع المحيط به بنفس الحماسة التي ندعوه بها إلى تبنيها.

إن أصحاب الدعوات أصحاب مسئوليات جسام، والذين يحملون قضايا يؤمنون بها هم أكثر الأشخاص قدرة على الوعي بالواقع والتعامل مع قوانينه، أو الاعتراك معها وتحمل المشاق في سبيل ذلك حتى يتم ترويضها والتحكم فيها، ومن ثم امتلاك القدرة على تسيير المجتمع وتوجيهه إلى حيث الوجهة المنشودة من خلال التحكم في هذه القوانين.

لذلك فالمرونة مع الأحداث هي إحدى مقومات شخصية المسلم، وإحدى قواعد فلسفة التغيير في الإسلام، ولكن على الإنسان أن يعي أن هذه المرونة يُسَمَّحُ بها فقط في دائرة الأمور المؤقتة، فعند ذلك فقط تُحَسَّبُ القواعد الشرعية في المصلحة في الترجيح بين أقل الضررين: الضرر الناتج عن عدم التغيير أو تأجيله، والضرر الناتج عن القيام بالتغيير بحزم.

يقول الإمام ابن تيمية^(١):

"وجماع ذلك داخل في القاعدة العامة فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاحمت فإنه يجب ترجيح الراجح منها.

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص: ٤٠ - ٤١، طبعة المدن.

فإن كان المعروف أكثر أمر به وإن استلزم ما هو دونه من المنكر... وإن كان المنكر أغلب نهي عنه وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف... وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يُؤمَرْ بهما ولم يُنَهَ عنهما، فتارة يَصْلُحُ الأمر وتارة يَصْلُحُ النهي، [أى: تارة يتولى الإصلاح جانبُ المعروف وتارة يتولى الإصلاح جانبُ المنكر] وتارة لا يَصْلُحُ أمر ولا نهي، حيث يكون المعروف والمنكر متلازمين وذلك في الأمور المعينة". يقصد في الأمور التي لا يمكن فيها تولى جانباً دون جانب.

ومن يريد التوسع في الأمر فعليه أن يرجع لكتاب شيخ الإسلام العز بن عبد السلام (قواعد الأحكام في مصالح الأنام)، وهو من الكتب الفريدة في التاريخ الإسلامي كله، وقد تناول هذا الموضوع باستفاضة شديدة وتقسيمات بديعة.

في نهاية المطاف

وفي نهاية المطاف أقول للقارئ:

لقد حاولت وضع بعض منارات الضوء في موضوع لا ينتهي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ألا وهو أثر العقيدة الإسلامية على تصورات المسلم وسلوكه في الواقع المعاش، والعمل على وضع منهج إسلامي لبناء الشخصية القوية من القيم الإيمانية لهذه العقيدة، فأرجو من الله أن يكون قد حالفني التوفيق، وأن يهدينا سبيل الرّشاد في كل جهودنا من أجل خدمة الإسلام والمسلمين.

محتويات الكتاب

٥ الإهداء
٧ - مقدمة الطبعة الثانية
٩ - مقدمة
١٥ القسم الأول: عقيدة الإسلام
١٧ - عقيدة الإسلام
١٨ - أركان الإيمان
١٨ أولاً: الإيمان بالله
٣٥ ثانيًا: الإيمان بالملائكة
٣٦ ثالثًا: الإيمان بالكتب
٣٧ رابعًا: الإيمان بالرسول
٤٠ خامسًا: الإيمان باليوم الآخر
٤٧ سادسًا: الإيمان بالقدر خيره وشره
٤٩ - حقيقة الإيمان
٥٠ - نواقض الإيمان
٥٣ - محاذير هامة جدًا للحد من الشطط في التكفير
٥٥ - مراجع هذا القسم
٥٩ القسم الثاني: منهج في بناء الشخصية القوية
٦٠ - هذا المنهج

- ٦١ - أرض الصراع
- ٦٤ - اختزال المفاهيم
- ٦٦ - تدمير الإنسان
- ٧٠ - ما هي الشخصية القوية
- ٧٣ أولاً: حرية الإرادة
- ٧٣ ١- التفريط في حرية الإرادة خيانة للأمانة التي حملها الله للإنسان
- ٧٤ - التفريط في الإرادة خيانة لله ﷻ
- ٧٧ ٢- القضاء والقدر وحرية الإرادة
- ٧٩ - علم الله ومصير الإنسان
- ٨٠ - مشيئة الله ومشية الإنسان
- ٨٣ - القدر أو النصيب بين ما تمّ فعلاً وما سيتم
- ٨٧ ٣- حرية الإرادة بين الإنسان المسيطر والإنسان المسيطر عليه
- ٨٨ - شخصية الإنسان بين السيطرة والتبعية
- ٩١ - بعض أشكال سيطرة الأشخاص الطاغوتية على الأشخاص المستضعفة
- ٩٥ ٤- الكبر كفيد كبير على حرية الإرادة
- ١٠١ ٥- ما الذي يمثل شخصية الإنسان عمل الإنسان أم البرستيج
- ١٠٢ - ضد البرستيج
- ١٠٩ ثانياً: ترسيخ المفاهيم والقيم الإيمانية داخل النفس الإنسانية
- ١١١ ١- ركائز القوة الإيجابية
- ١١٢ - لا بد من القوة
- ١١٣ - الاعتصام بالله
- ١١٥ - التقوى والتوكل

- ١١٨ - الصبر
- ١٢٠ - الزهد والعمل
- ١٢٢ - امتلاك القوة المادية
- ١٢٤ - الصدق والاستقامة
- ١٢٦ - صراع القيم الإسلامية في الواقع المعاصر
- ١٢٩ ٢- الوعي الإيماني في مواجهة الوعي الزائف
- ١٣٠ - هل نستمد قيمنا من الله أم من الطاغوت؟
- ١٣٣ - المفاهيم والقيم الإسلامية والأعراف والتقاليد السائدة
- ١٣٨ - موقف الإسلام من الأعراف والتقاليد
- ١٤٢ - العلاقة بين السلبية والضعف والخمول والخضوع للأعراف والتقاليد
- ١٤٤ - الآثار المدمرة لضغط التقاليد على الإنسان
- ١٤٦ - موقف الإنسان الرباني من الرأي العام
- ١٤٩ - الحرام الأصغر والحرام الأكبر
- ١٥٣ - حقيقة ما يسمى برأي الناس
- ١٥٦ - مَنْ يَحْكُمُ عَلَيَّ مَنْ؟ والموقف من الحُقَادِ
- ١٥٨ - الدائرة الإسلامية
- ١٥٩ - كيف تفكر المرأة عندنا
- ١٦٠ - إنسانية المرأة
- ١٦٣ - الاستسلام للأحزان يعني الاستسلام للدمار
- ١٦٦ - التشاؤم شرك والتفاؤل حقيقة إسلامية
- ١٦٧ - المرأة هي السحان الحقيقي للمرأة في مجتمعنا
- ١٧٣ - مفهوم النجاح بين الإنسان الرباني والإنسان النفعي

- قيم المواجهة ١٧٩
- الواقعية الإصلاحية في مواجهة الواقعية الاستسلامية ١٨٠
- العقل والجنون والشجاعة والتهور ١٨٥
- الإيجابية والسلبية ١٩١
- مفهوم التسامح والسماح ١٩٧
- فلسفة التغيير في الإسلام ١٩٩
- في نهاية المطاف ٢٠١

كتب المؤلف

- الإسلام الليبرالي بين الإخوان المسلمين والعلمانيين والوسطيين.
- الإسلام والغرب الأمريكي بين حتمية الصدام وإمكانية الحوار.
- حقيقة العلمانية (ج ١).
- حقيقة العلمانية (ج ٢).
- تزييف الإسلام وأكذوبة المفكر الإسلامي المستنير.
- موقف الإسلام من الحب بين الرجل والمرأة.
- كن قويًا بالإيمان، طبعة ثانية.
- مواجهة المواجهة.
- الصراع حول المادة وجوهر الحياة.
- الإسلام والعولمة، طبعة ثانية.
- ابن رشد وفيلم المصير.
- علمانيون أم ملحدون.
- نظرية الفن الإسلامي.
- أنت أعطيت البراءة لقاتلينا (شعر).
- الرد على بابا الفاتيكان وهجوم الغرب على الرسول ﷺ.
- الإسلام النفعي.
- * تحت الإعداد للطبع:
- قصائد استشهادية (شعر).
- نقد المذاهب والتيارات المعاصرة.
- أيتها الملكة: دمي على يدك (شعر).
- غرام تلميذه (شعر).



هذا الكتاب

- هذه بعض القضايا التي يتناولها هذا الكتاب
- أركان العقيدة الإسلامية
- حقيقة الإيمان
- نواقض الإيمان
- أين الروح
- المنهج الإسلامى فى بناء الشخصية القوية
- هل توجد للإنسان إرادة حرة
- الصراع بين الرغبات والقيم
- علاقة الشخصية القوية بالإيمان بالقضاء والقدر
- الإيجابية والسلبية من المنظور الإسلامى
- الفرق بين الواقعية الإيجابية والواقعية الاستسلامية
- الشخصية السيكوباتية المسيطرة وكيفية استعبادها للشخصية الضعيفة
- مفهوم النجاح فى الإسلام
- الفرق بين التسامح والاستسلام

هذا الكاتب

أما الكاتب فهو المفكر الإسلامى محمد إبراهيم مبروك أحد أبرز المفكرين الأكثر إثارة للجدل فى هذه المرحلة من خلال كتبه المختلفة مثل :

- الإسلام الليبرالى بين الإخوان المسلمين والبراليين والعلمانيين
- العلمانية العدو الأكبر للإسلام
- الإسلام والغرب الأمريكى : نظرية فى تفسير الصراع

ومحمد إبراهيم مبروك مفكر مستقل يجمع بين السلفية والتجديد بمعنى أن له مشروع الفكرى المستقل عن التيارات الإسلامية المختلفة .

ولقد أكد مبروك من خلال مناظراته التى تابعها الملايين على القنوات الفضائية الجزيرة وغيرها مع أعلام الفكر العلمانى من العرب والأمريكيين، أنه يمثل بالفعل يوصف عادة- المدفعية الثقيلة للإسلاميين فى مواجهة العلمانيين ودعاة الفكر الغربى .

الناشر



الثمان
عشرون جنيهاً